ساعي البريد لا يعرف العنوان

All rights reserved © 2022, Mohammed Said Hjiouij
https://hjiouij.com

المؤلف: محمد سعيد احجيوج

عنوان الكتاب: ساعي البريد لا يعرف العنوان (رواية)

الطبعة الأولى – طبعة مغربية

(نوفمبر 2022)

تصميم الغلاف والإخراج الفني: المؤلف

ISBN: 978-9920-570-26-8

رقم الإيداع: 2022MO4102

0660020214
daragora2020@gmail.com

أكورا للنشر والتوزيع AGORA
العنوان: 34، شارع المملكة العربية السعودية.
تجزئة العنبر، الإقامة 58، رقم 6، طنجة، المغرب

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية، أو إلكترونية، أو ميكانيكية، أو أي وسيلة أخرى بدون إذن خطي من المؤلف.

طبعة مغربية

محمد سعيد احجيوج

ساعي البريد لا يعرف العنوان

اختفت جثة إيزل كما تبخَّر عدنان من قبلُ وكلُّ ما يهمُّك الإسبانيُّ القتيل. دع العميل الإسبانيَّ جانبًا وقل لي أين اختفت إيزل. لكنك تريدني أن أبدأ، مرةً أخرى، من البداية، وأكتب كل التفاصيل. حسنًا: خلود العمراني هو اسمي، أبتعد حثيثًا عن الثلاثين نحو سجن الأربعين، مطلقةٌ أو ربما ليس بعد، وكل ما سيأتي محض أكاذيب. جهِّز لي ما يكفي من أوراق وأقلام واقرأ إن كنتَ قارئًا.

كل ما سيأتي ذكره هو أكاذيب، وهي للسبب نفسه، حقائق لا يمكن التشكيك في صدقيَّتها. لأحكي، أو لأعترف وهي الكلمة التي تفضِّلها لا شكَّ، عليَّ أن أتذكر. لكن السؤال الذي، كما يقولون، يفرض نفسه، هل الذكريات موجودةٌ حقا قبل أن نُحضرها إلى الوعي ونسجنها في كلمات، أم أننا خلال عملية التذكُّر نكتب الذكريات، نخلقها/نختلقها؟

هل ترى المأزق؟ هكذا علَّمني عدنان كيف لا أسلم نفسي لخداع الذاكرة.

الذاكرة ليست مخزنًا/مقبرةً لردم التراب فوق الذكريات. ليست مكتبةً لا متناهية الرفوف نكدِّسها بالذكريات، المسجَّلة، المحفوظة من التزييف. لو أن الأمر كذلك كيف سنصل إليها، كيف نستخرجها من تلك المقبرة، ونحن لا نملك إليها وصولًا؟ لا نعرف بوجودها لأنها مخزَّنةٌ بعيدًا عنا ومحفوظة. لا يمكن الوصول إلى ذكرى محددة بعينها واستخراجها ونحن لا نعلم أصلًا بوجودها. أن نعلم بوجودها يعني أنها يجب أن تكون حاضرةً في الوعي. كل ذكرى بعينها يجب أن تكون حاضرةً في وعينا، كل الذكريات، حتى نملك أن نتذكرها. لكن لو أنها جميعها حاضرةٌ في وعينا فنحن لن نحتاج للتذكر آنذاك، كل الذكريات متذَكَّرةٌ بطبيعتها، ويا له من جحيم. هذا غير صحيح كما لا يخفى عليك، أو ربما هو يخفى عليك.

الذاكرة وهم. نحن بارعون جدًا في اختلاق الذكريات. استرجاعُ الذكريات خلقٌ لها، تزييفٌ لها. كل ما نسترجعه محض وهم. أكاذيب.

غير أنها رغم ذلك، ركِّز مع قولي سيدي المفتش: هي ذكرياتٌ فريدة. ما يتذكره/يخلقه الشخص الفلاني ليس، بحذافيره، ما يتذكره/يخلقه الشخص العلَّاني، حتى لو كانا يستعرضان ما يُفترَض أنه ذكرى مشتركةٌ بينهما. كل واحدٍ يخلق الذكرى، الذكريات، الخاصة به. كلٌّ منا يبصم خَلقه ببصمته الفريدة. هو وحده. وهي لذلك، بفُرادتها، تصير صادقةً تمامًا. فُرادتُها ليست اعتباطية. تلك العشوائية في خلق الذكريات محكومةٌ

بمنطق ما وبـ، لنقل، حقائق ما. وليس دوري أنا أن أحلِّل تلك الاعتباطية أو أستخرج ما ستعتبره أنت حقائق وما ستضعه جانبًا مصنَّفًا أكاذيب.

ما أقوله كذبٌ صِرفٌ لأنه لا يملك في ذاته ما يكفي لتكذيبه، لكن لأني أنا من أقوله، ولا أحد غيري يملك أن يقوله بالصيغة هذه، فإنه يملك صفة الصدقيَّة. إنه مِلكي، خاصٌّ بي. إنه إنتاجٌ ذاتيٌّ محض. إنه لا يحتاج، من داخله، في ذاته، للتكذيب.

لا شكَّ بدأتَ تتململ مما قرأتَ بحثًا عن الحقيقة المطلقة التي تسعى إليها. بالله عليك أخبرني أيَّ حقيقة مطلقة هاته التي تسعى إليها وأنت عجزتَ عن إيجاد جثة إيزل؟ (وما إلزامك هذا لي بكتابة كل شيء إلا هدرٌ للوقت) بل أنت ترفض تصديق وجود الجثة نفسها. تريد البداية، بداية كل شيء قبل أن تحدِّد إذا كانت هناك جثةٌ حقًا تحتاج منك التنقيب عنها؟ البداية. دعني أخبرك أولًا، البداية هي أيضًا، كما الذاكرة، وهم. محض وهم. تحديد نقطة البداية هو الآخر اعتباطي. عشوائيٌّ صِرف. لكن بطبيعة الحال الأمر الاعتباطي، ما نصِفه بالاعتباطي، هو الأمر الخارج عن قدرتنا التفسيرية ليس إلا. بمعنى، وركِّز معي هنا، البداية وهم، لكن اختيار/انتقاء/تحديد البداية رغم اعتباطيَّته محكومٌ بمنطق ما، بتفسير ما، أنا لا أملكه. فهل يمنحك بياضُ معطفك وشيبُ رأسك حكمة إدراك ذلك المنطق؟ أريد قلمًا آخر. هذا القلم مزعجٌ لا يتحرك بالانسيابية المطلوبة.

فكرتُ أول وهلةٍ أنها تريد الانتحار، ثم نفضتُ الفكرة عن رأسي. الأرجح هي مثلي. غادرت زبونها وخرجت لتنظِّف نفسها من عرق الليلة. تغتسل برذاذ الأمواج وتتطهَّر بالنسيم العليل. هذا ما أفعله أنا. كلما رافقتُ زبونًا إلى أحد الفنادق المطلَّة على شاطئ مالاباطا أغادره فجرًا وأتمشَّى على الرصيف الصخري حتى أصل إلى نهايته. أتجاهل هواة الصيد المبعثرين أسفل الرصيف، يرمون صنَّاراتهم إلى البحر وأعينُهم تتلصَّص على جسدي، وأفتح ذراعي وأشرع صدري لرذاذ الأمواج التي ترتطم عنيفًا بحاجز الصخور وأتذوَّق القطرات التي تبلِّل وجهي. أترك النسيم البارد يلعب بشعري، وألتهم الهواء النقي وأدفنه عميقًا في صدري. للبحر مفعولٌ سحري. مفعولٌ مطهِّر. حين أنظر إلى أعماقه بعيدًا أحسُّني عدتُ إلى رحم أمي. أغمض عيني وأشعر بدفء ساحر. أرى الأمواج قادمةً يركب بعضها بعضًا، فأشعر بغضب والدتي، ثم تمسح وجهي قطرات الماء المتطايرة من الأمواج وأتخيل ماما تمسِّد وجهي بكفِّها الحنون، كما كانت تفعل، ذات زمن سحيق، قبل أن تبيعني لزوج ثري وعد بإرسالها وأبي إلى الحج.

لا شك، إنها تريد الانتحار. طريقة وقوفها غريبة. أراها مترددة، تقدِّم قدمها اليمنى وتتركها معلَّقة، كأنها تنوي المشي على الهواء، ثم تعيدها مجدَّدًا إلى الرصيف. صرختُ فيها أن تتوقف وأردتُ الركض نحوها. هذا الكعب العالي لا يسمح لي بالجري.

التفتت إليَّ ورأيتُ عينيها المحمرَّتين والمنتفختين. رأيتُ الحزن جليّا على قسمات وجهها. توقفتُ حتى لا يربكها جريي نحوها وتقفز. وضعتُ يمناي على قلبي المتوثِّب ومددتُ ذراعي اليسرى نحوها.

"من فضلك، لا تفعلي".

قلتُ، وقالت عيناها الشاردتان أنَّ قولي لم يهزَّ طبلتي أذنيها.

استدارت مجدَّدًا نحو البحر. تجمَّدتُ في مكاني. أردتُ أن أصرخ مرةً أخرى، وخرج صوتي باهتًا مرتبكًا يائسًا: "اللعنة، مهما يكن الأمر فإنه لا يستحق".

سمعَتني هذه المرة. استدارت برأسها نصف استدارة وانقلبتْ سحنتُها. لم أصدق أنها تبتسم. السخرية جليةٌ في ابتسامتها، مع لمحةٍ من المرارة غير خافية. أرعبني هاجس أن تلك الابتسامة تعني النقيضين. قد تعني أنها غيَّرت رأيها، وقد تعني العكس تمامًا، إن قرارها نهائيٌّ لا عدول عنه، ولم يعُد لديها ما تخسره.

"إنك لا تعرفين شيئًا. لا أحد يعرف". قالت كلماتها المثقلة باليأس، وانحنت إلى الأمام. كاد قلبي ينخلع ويخترق صدري، قبل أن أراها تعتدل لتجلس على الرصيف. تعتمد بكفَّيها على الصخرة وترفع وجهها إلى الأعلى وتُميل رأسها نحو الخلف، ليستقبل صدرُها رذاذَ الموجة القادمة.

توجهتُ نحوها وجلستُ بجانبها.

ذلك الصباح من صباحات طنجة الباردة، على الرصيف الصخري لشاطئ مالاباطا المطلِّ على البحر الأبيض المتوسط، على بُعد كيلومترات قليلة من الساحل الأوروبي، كانت بداية تعرُّفي على إيزل، التي ستحكي لي خلال الأيام التالية قصتها، قصة جنينها المطرود من جنة الرحم قبل الأوان، ثم اختفاء زوجها. قصة الفساد الفاحش للسلطة وورطتها مع ضابط مخابرات استغلَّ ضعفها ليستخدمها طُعمًا لصيد الرجال ثم ابتزازهم. قصة المصادفات العبثية التي تُخرج قطار حياتنا عن مساره الذي تعبنا برسمه طويلًا ثم وجدنا أنفسنا في خضمِّ أمواج متلاطمة تُلقي بنا من دوامة إلى أخرى.

بقينا صامتتين لوقت طويل. احترمتُ صمتها، ذلك الصباح، ولم أشأ خدشه بأسئلتي الفضولية، إلى أن كثُرت أعين الفضولين المسلَّطة علينا. سألتُها أن تذهب معي إلى بيتي، تستحمُّ ثم نفطر ونتحدث.

ذهبنا، وليتنا لم نذهب.

تتعدَّد البدايات ويتشعَّب بعضها عن بعض، قالت إيزل، وأما النهايات فنهايةٌ واحدة. كنا في سيارتي. غلبني الفضول وسألتُها أن تحكي لي، أن تخفِّف عن نفسها ثقل حكايتها التي دفعتها إلى محاولة الاستسلام لنداء عرائس البحر. قالت بأنها لا تعرف من أين يمكنها أن تبدأ البوح. تعدَّدت الأسباب وجاءت النتيجة واحدة.

كان كلامها بطيئًا وشعرتُ بها مرهقةً ومتعبةً كأنها لم تنم منذ أيام أو كأنها كانت سجينة أعمال شاقة. فعلًا كانت منهكة جدًا. ارتمت، فور وصولنا إلى شقتي، على أول أريكة وانفلتَ زمام تحكُّمها بنفسها وانطلقت تبكي. تصخَّرتُ في وقفتي. لم أعرف ماذا يمكن أن أقول لأخفِّف عنها ولم أملك القوة لتحريك قدميَّ الصخريتين لأقترب منها وأربِّت على كتفها.

فكرتُ أنه من الأفضل أن أتركها تبكي لتفرغ طاقة الحزن المكبوت في أعماقها. البكاء، كما قال عدنان، الفعل ذاته، فعل البكاء، يطهِّر النفس ويريح البدن ويهدِّئ الأعصاب. لو سمحتَ لي باستعارة لغتك الطبية سأقول، وليست الفذلكة نيتي سيدي، إن البكاء يساعد في تنظيم معدل

دقَّات القلب وتنشيط الدورة الدموية، وإخراج الشحنات السلبية التي في حالة كبتها يمكنها إصابة الجسد بأمراض عضوية. أيضا يفرز البكاء هرموني الأوكسيتوسين والإندروفين اللذين لهما فوائد عديدةٌ منها التخفيف من الألم وتحسين المزاج، كما يساعد البكاء على النوم، تحسين الرؤية والتخلص من البكتيريا في العينين. يُفترض أنك تعرف هذا ولا تسألني كيف أعرف أنا. عدنان علَّمني. علَّمني كل شيء.

خفَتَ سحرُ بكائها وتمكنتُ أخيرًا من تحريك قدميَّ. ذهبتُ أولًا إلى غرفتي وأحضرتُ لها غطاءً خفيفًا وألحفتُها به إلى أعلى بطنها، بعد أن نزعتُ عنها حذاءها. درجة حرارة الغرفة معتدلة، لكن الغطاء سيفيد إيزل للحصول على دفء إضافي وسيمنحها، ولو وهمًا، إحساس الحماية والأمان.

جلستُ على مسند الأريكة وتركتُ أصابعي تتخلَّل شعر إيزل الحريري. أتذكر أن هذا الفعل كان يمنحني راحةً كبيرةً حين كانت ماما تضع رأسي على حِجرها وتداعب خصلات شعري كلما انكشف لها حزني. لم تكن تسألني شيئًا، فقط كانت تترك نبرة صوتها الدافئة تستدعيني، "بنيَّتي، تعالي"، لأدفع قدميَّ نحوها، فتمسك بيدي، تربِّت على كتفي، ثم تأخذ رأسي إلى حِجرها وتبدأ أصابعها في تخليل شعر رأسي. كانت تحبني. بالتأكيد كانت تحبني. لكن، كما يقال، الطريق إلى الجحيم محفوفٌ بالنوايا الطيبة. كذلك الحب، لا يحمي من القرارات الخاطئة التي تُتخذ باسمه

والتي تقلب حياتنا رأسًا على عقب. كادت أمي تقفز فرحًا حين جاءتها إحدى معارفها بخبر أنها وجدت لي زوجًا. ثريٌّ عربيٌّ يكبرني بعشرين عامًا. ترمَّل منذ أشهر قليلة. قال بأن لا أبناء له، إلا أن كذبته كانت جليَّة. أما أنا، ففي نظر أمي وصاحبتها، عزباء يكاد قطار الزواج يفلت منها. أخذتْ صديقة أمي، التي صارت بشكل ما خاطبةً، صورةً لي لتريها للرجل الذي يبحث عن نصفه المغربي بهذه الطريقة التقليدية التي عفى عنها الزمن. عادت في اليوم التالي محمَّلةً بالهدايا وتاريخ نهاية الأسبوع موعدًا لمجيء الرجل لخطبتي. لم يكن لرأيي أي اعتبار. هذا لم يكن معتادًا من أمي ولا من أبي. رفضتُ من قبل خُطَّابًا كُثرًا، وقلتُ بأني أريد الدراسة ثم بعد التخرُّج قلتُ بأني أريد التركيز على عملي. لم يمانع بابا ولم ترغمني أمي رغم احتجاجاتها المتكررة عن تأخري في الزواج ورغبتها بأن تُرزق أحفادًا قبل مماتها. لكنها هذه المرة أقنعت والدي بأني لو ضيعتُ هذا العريس فلن أجد غيره، وسأندم طيلة عمري. إحدى الهدايا التي أرسلها الرجل مع الخاطبة، وما زلتُ لا أعرف أيَّ مصادفة شيطانية جمعت بينهما، كانت رحلةً مدفوعةَ كامل المصاريف لأداء مناسك الحجِّ مع وقفة سياحية في تركيا، لكلٍّ من أمي وأبي. لا أعرف إذا كانت تلك الهدية أدارت رأس أمي ودفعتها للإصرار على الموافقة، هي التي كانت تحلم بزيارة قبر النبي، كما تقول، منذ سنوات لكن ضيق ذات اليد لم يكن يسمح لها ولأبي بتحقيق حلمهما العزيز. ما أعرفه أن زواجي لم يستمرَّ شهرًا واحدًا، وتبعتْه أشهرٌ

مريرةٌ من السعي بين أروقة المحاكم للحصول على الطلاق، ثم كراهيةٌ مقيمةٌ لكل الرجال عشَّشت في قلبي.

ضبطتُ نفسي أحدِّق، دون قصد، في جزء بارز من ثدي إيزل. الزر العلوي لقميصها انفتح، على ما يبدو، من تلقاء نفسه. البياض الشاهق لصدرها يحبس الأنفاس. كأن بشرتها لم تُقبِّلها الشمس من قبل. ابتسمتُ وسحبتُ اللحاف لتغطية صدرها وإخفاء سطوة الثدي النافر. تذكرتُ عدنان، واسترجعتُ إلى ذاكرتي مقطعًا من روايته التي، لن تصدِّق سيدي ~~الطبيب~~، أنني أحفظها كاملة.

مداعبة الرجل للحلمتين يحاكي لدى المرأة نفس شعور إرضاعها لصغيرها، وفي هذه الحالة يتعزَّز لديها شعور الألفة والارتباط بالرجل كما يتعزَّز لديها الارتباط بصغيرها عند إرضاعه. حين ينجذب الرجل قسرًا إلى الثديين فإن ما يجذبه نادرًا ما يكون الشهوة الجنسية، بل هو شعور الارتباط بالمرأة. ذلك الحنين إلى صدر الأم الحنون، ذلك الفراغ في صدره الذي يدفعه إلى التصرف بصبيانية أمام المرأة، وذلك الحنين إلى الاكتمال والارتباط مع النصف الآخر. إن مجرد النظر إلى الثدي يمكن أن يحوِّل مزاج الرجل من أقصى حالات الغضب إلى أقصى حالات الوداعة.

يقصد عدنان الرجال بحديثه، فماذا سأقول عن نفسي وعن سرِّ تحديقي، اللاشعوري، في ثدي إيزل؟ لم أكن قادرةً على التحديد آنذاك إذا

كان تيهي في ذكرياتي وتذكر والدتي هو السبب، أم أن تحديقي نابعٌ من فضول أنثوي محض وغيرة نسائية، وكم من امرأة ضبطتُها في الشارع تحدِّق بنظرات، يصعب فصل نهم الجوع فيها عن حسرة الغيرة، في مؤخرة متقنة التكوُّر لامرأة أخرى تتقن انتقاء السراويل المناسبة لشدِّ الردفين وإبرازهما بما يكفي لإسالة لعاب النسوة الأخريات قبل الرجال. بل ثمة صديقةٌ تركتني مرةً لتسير بخطوات واسعة حتى تتابع مؤخرةً منحوتةً تحت تنُّورة قصيرة، وتبعتْ صاحبتها حتى دخلتْ ناديًا للبلياردو. ~~غيرةٌ هي من بياض ثديي إيزل أم تراها، تساءلتْ خلود مع نفسها سرًا، بداية شهوة نائمة تستفيق من سباتها؟~~ يسهل ~~عليَّ~~ على خلود الآن الإدراك والتفسير بعد أن حدث ما حدث وصار ماضيًا. لكن في لحظة الحاضر تلك لم يكن الفهم ميسَّرًا وكانت كل أبواب الاحتمال مشرعة.

نامت إيزل، وبقيتْ نائمةً طيلة النهار، كأنها لم تنم منذ سنوات. قلقتُ عليها وتحقَّقتُ أكثر من مرة أنها لا تزال تتنفس، كما كنتُ أفعل طيلة ليالي المستشفى أطلُّ على حاضنة عدنان أتحقق أنه ما زال يتنفس.

حين اقترب الليل تجهزتُ للخروج. كانت لا تزال نائمة، وكنتُ مترددةً حيال تركها وحدها. متوترةً قليلًا من ترك شخص غريب في بيتي. قد يكون تهورًا كبيرًا أن أتركها وحدها في شقتي، لكن لا شيء لديَّ هنا أخاف عليه.

لو كنتُ صادقةً مع نفسي لتوقفتُ لمحاولة فهم ذلك الهاجس الذي كان يخِزُ مؤخرة رأسي. لم يكن الأمر واضحًا، لكن شيئًا من عدم الاطمئنان كان يغلِّفني. ظلا ما رأيتُه بطرف عيني ثم حين استدرتُ لم أجد شيئًا. يمكنني القول الآن بأني أتذكر أنني غطيتُ إيزل باللحاف إلى عنقها، وكان قميصها مزرَّرًا بكامله. ثم حين ذهبتُ إلى المطبخ لأشرب وعدتُ للجلوس على مسند الأريكة وجدتُ اللحاف نزل إلى بطنها وزرَّين من قميصها مفتوحين يكشفان عن بياض صدرها وقمر ثديها المتوثِّب. هل فتحت إيزل قميصها عمدًا أم انفتح من تلقاء نفسه حين أبعدتْ الغطاء عن صدرها؟ يسهل أن أقول هذا الآن، لكن عدنان علَّمني ألا أثق بالذاكرة ثقةً عمياء. يُحتمل أن ذاكرتي تمدُّني الآن بتفاصيل إضافية غير حقيقية لتعزيز ادعائي بأني شعرتُ أن شيئًا ما غير طبيعي كان يدور خلف ظهري. لا حدود لما يمكن أن تمدَّني به الذاكرة إلا قدراتي الإبداعية الخاصة، قدرتي على الخلق. حسنًا، ما مضى قد مضى، وسردي له بشكل أو بآخر لن يزكي من حقيقته ولن ينقص منها شيئًا. هناك جثةٌ وأنت تنكر وجودها، هذه هي الحقيقة بالنسبة إليَّ، وكل ما عداها محض مغالطة سردية.

جهَّزتُ لها وجبةً خفيفةً تركتُها على المنضدة بجانب الأريكة وتركتُ لها ملاحَظةً بأني سأتغيب حتى الصباح التالي، ثم خرجتُ إلى موعدي. حاولتُ قدر الإمكان إبعاد هاجس إيزل عن تفكيري والتركيز مع متطلبات العميل. كانت تلك المرة الخامسة مع هذا العميل الذي لا ينطق بأي كلمة معي،

إلا أوامره القصيرة المقتضبة بفرنسية ركيكة. قسمات وجهه مغربية لكن لكنة حديثه إسبانية صِرف. أعتقد أن الدماء الإسبانية اختلطت مع المغربية منذ قرون وثمة وجوه كثيرة يصعب تحديد ما إذا كان أصحابها مغاربةً أم إسبانًا. منذ شهر صار له موعده الأسبوعي الثابت. في الحقيقة هو يُجزل العطاء ولا أريد خسارته. إلا أن متطلباته غريبة، أو فلأقل مختلفة، نوعًا ما. يبدأ اللقاء دائمًا بحضن طويل بجانب الباب. يعصر عجيزتي بكلتا يديه، ثم يمسك وسطي بقوة ويبدأ الاحتكاك صعودًا ونزولًا حتى يهمد احتقانه. ينزع ملابسه بعد ذلك ويتوجه للاستحمام. أرتب أنا أطباق المأكولات البحرية التي يشتريها جاهزة، وأفتح قنينة النبيذ الأحمر الذي لا يُحضر غيره. يخرج من الحمَّام عاريًا يقطر ماءً، ويجلس إلى المائدة ليبدأ الالتهام. يستلقي بعد ذلك على ظهره على الأرض ويطلب الحصة الأولى، التي يخور في نهايتها كثور. يقوم بعد ذلك ليرتدي ملابسه، بذلة سهرة كاملة، ونجلس لمشاهدة فيلم من كلاسيكيات السينما الإيطالية. بجانبنا أطباقٌ من المقرمشات والفواكه الجافة وقنينةٌ ثانيةٌ من النبيذ. ينسى وجودي تمامًا إلى أن ينتهي الفيلم، ثم يحملني لأجلس على حِجره وأبدأ بتقبيله من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، أنزع ببطء قطع ملابسه قطعةً قطعةً وأمرُّ بشفتيَّ على كامل جسده دون أن أتخطى أي بقعة. في الختام تكون ناره قد استعرت فيحملني ويرميني على الفراش ويمزق ملابسي. متعته الكبرى في تمزيق ملابسي. خفتُ منه في المرة الأولى. صرختُ ودفعتُه عني. قام وفتح دولاب الملابس. لم يقل شيئًا، فقط أشار إلى

تشكيلة مبهرة من الملابس النسائية الحديثة، وعاد إلى هجومه. يترك التبَّان إلى النهاية. يحب أن يعصره على جسدي ويشدَّه حتى يخترق الشفرين. يهيِّجه ذلك المشهد فيسحب التبَّان ويغرس داخلي رمحه بدفعة قوية. أشعر بنار لافحة تخترقني فأصرخ، ومع صرختي يخور ويسقط عليَّ راضيًا بإيلاجٍ ناريٍّ سريعٍ وقصير. يستلقي على ظهره يلهث. تمرُّ دقائق ثم يأخذني إلى صدره، يحضنني كدمية، وننام حتى الصباح. الأمر ميكانيكي بالنسبة إليَّ، ولا متعة في الأمر. هي فقط طلبات ~~العميد~~ العميل التي يجب أن تُحقَّق، وعليَّ إنجازها بإتقان، ومن الإتقان التظاهر بالاستمتاع في كل مرحلة، بالدرجة التي تلائم كل خطوة. الاعتياد على تمثيل ذلك لم يكن سهلًا. في الصباح انتقيتُ من دولابه ما اشتهيتُ من قطع ملابس سيكون عليَّ الحضور بها في الموعد التالي ليستمتع بتمزيقها، لكنه كان الموعد الأخير.

خرجتُ من المبنى، وقبل أن أركب سيارتي سمعتُ الاصطدام. استوعبتُ دون أدنى جهد أنه صوت سقوط جسدٍ بشريٍّ على سطح سيارة. تجمدتُ في مكاني. تدفَّق الأدرينالين في عروقي. فقدتُ السيطرة على التحكم في أطرافي، بعضها يريد الهرب فورًا وبعضها يريد الالتفات لتمحيص التفاصيل... ورأيتُ كل شيء. ليس كل ما رآه جلجاميش لكن رأيتُ كل شيء. قطع الزجاج على الرصيف والإسفلت. سطح السيارة المنبعج. الذراع المطوية بشكل مستحيل فيزيائيًا. الوجه الدامي للإسباني.

رفعتُ رأسي إلى الأعلى، وتلاقت عيني مباشرة بعيني العميد شهاب يطلُّ من شقة الإسباني.

الدوار. تسارُع دقات القلب. الضباب. قاومتُ إغراء فقدان الوعي. استندتُ على السيارة أمامي. جررتُ قدمي نحو سيارتي. شغلتُ المحرك وانطلقتُ. لا تقُل لي إن هذه الجثة أيضًا غير موجودة. الصحافة كتبت عن الموضوع. عن انتحار الأستاذ الإسباني.

عدتُ ووجدتُ إيزل استيقظت. لا تزال على الأريكة جالسةً تائهةً في الوميض المنبعث من شاشة هاتفها.

ما حدث قد حدث. كان عليَّ أن أنسى ما حدث، فورًا. لا شأن لي بما رأيتُ. هذا ما كنتُ أردد لنفسي طيلة رحلة عودتي. حين وصلتُ كنتُ قد بدأتُ أتخلص من أعراض انسحاب الأدرينالين. صرت أهدأ. فكرتُ، إنه يوم عملٍ آخر لا أقلَّ ولا أكثر. وكما كل مرة، كل صباح، أرمي من ذاكرتي ما حدث في الليلة التي سبقتْ.

المزيد من الورق سيدي المفتش، وقلمًا آخر.

جالستين في شرفة شقتي المطلَّة على شارع محمد الخامس. كانت إيزل تمسك بكوب من الشوكولاتة الساخنة بكلتا يديها. عيناها تنظران في اتجاه الأمواج الهادئة ورمال الشاطئ البلدي الذهبية من فجوة المباني الممتدة أمام الكورنيش، إلا أنها ساهمةٌ في أفكارها ترى داخلها أكثر مما ترى خارجها.

يا لسحر عطرها، الذي لبستْ منه قطرات بعد أن استحمَّت. أريجٌ غريبٌ غير مألوف. أكاد أميِّز فيه عبق الفانيلَّا الساحر مع نكهة خفيفة من الشوكولاتة. أكيد ثمة أريج زيت البتشول لكنه يبدو مخفيًا تحت طبقة من المسك. هناك أيضا النعناع، الذي يكاد يكون منعدمًا في العطور النسائية. ميزتُ أيضا عبق يلانغ يلانغ المستخرج من شجرة ذات أزهار صفراء تكاد تتواجد حصرًا في الفليبين. كل هذا الأريج كان مغلَّفًا بالياسمين. شعرتُ آنذاك بيقين تام أنني شممتُ هذا العطر من قبل، لكني لم أتذكر أين. متأكدةٌ ليس في الشارع ولا في أي مكان قريب، ولا حتى زمنًا قريبًا من ذلك اليوم. هذا الأريج اختزنه أنفي ذات يوم منذ سنوات بعيدة. جاهدتُ للتذكر لكن الذكرى استعصت على التشكُّل. شعرتُ بالارتباك وأيضًا

الانزعاج. شعرتُ بجسدي يتصارع مع ذاته بين طلب المزيد من الأريج وبين محاولة لفظه. أخفقتُ في التذكر. يبدو أن ذكرى هذا العطر مدفونةٌ في أعماق ذكرياتي ولا سبيل لاستخراجها إلا أن أتركها تأتي من تلقاء نفسها. هكذا علمني عدنان، وهو يتحدث عن الكتابة. حين تستعصي عليك كلمةٌ ما، لا تجهد نفسك بالبحث عنها، فلن تجدها ولن تسلم لك نفسها. اتركها، ابتعد عنها، وأكمل طريقك. ستأتي من تلقاء نفسها لاحقًا.

يمكنني أن أقول بأنني خبيرةٌ نوعًا ما في أنواع العطور وطريقة تصنيعها، لكثرة ما قرأتُ حول ذلك ذات لحظة جنون حين أردتُ كتابة روايتي الأولى على غرار رواية زوسكند: العطر. لكني كنتُ غبيةً إذ غفلتُ تمامًا عن طبيعة تلك الروائح وقدراتها السرية، وماذا يعني أن تجتمع كلها في عطر واحد. كل ما كنتُ أفكر فيه تلك اللحظة: يا لجمال حزنها، إيزل.

وجدتُني أتملَّى في قسمات وجهها، المتورِّد بفعل الحمَّام الدافئ الذي خرجتْ منه منذ قليل، وأتوه فيه رغمًا عني. عينان واسعتان لم يُخْفِ الحزن المترسِّب فيهما لمعة الطفولة وبريق البراءة. وجْنتان ناضجتان كحبَّتي فراولة. شفتان مرسومتان بدقة تصل حدَّ الكمال، ترى الدم ينبض فيهما، وترى نبض الحياة، وترى الدعوة السرية مكتوبةً هناك باسمك.

شعرتُ برعشة خفيفة واجتاحت رأسي سيول أفكار لم أتخيل نفسي يوما قد أفكر فيها. أغمضتُ عيني ونفضتُ رأسي. لكن تلك المشاهد المتخيَّلة انطبعت على عيني.

ابتلعتُ ريقي وأغمضتُ عيني. عدتُ أفتحهما سريعًا وأخفقتُ في مقاومة النزول من الشفتين إلى تضاريس جسدها. بروز الثديين تحت قميصي الأبيض، الذي اكتفت به قطعةً وحيدةً بعد الاستحمام، يغري بالتحديق فيهما، بل الهجوم عليهما والتهامهما. الفخذان العاريان ليسا أقلَّ شهيةً من شفتيها النابضتين بالحياة. صعَّدتُ عينيَّ إلى ملتقى ساقيها وحدَّقتُ إلى السواد الخفيف الذي يظهر تحت القميص. ابتلعتُ ريقي، مجددًا، بصعوبة، وإيزل ساهمةٌ بعيدًا، أو لعلها كانت تتظاهر. شعرتُ بقطرة عرق باردة تنزلق عبر ظهري. ارتفعت دقَّات قلبي وأحسستُ بالبلل اللزج بين ساقي وانقباضات الفم الذي بدأ يتسع.

انتفضتُ أجري إلى الحمام وصفقتُ الباب خلفي.

استندتُ على الباب وحدَّقتُ في المرآة. كان الرعب يسكن ملامحي. شعرتُ بالارتباك يُفقدني ثبات وقفتي. أتذكر جيدًا كيف كانت يداي تهتزَّان وقدماي صارتا رخوتين. شعورٌ بالضعف والقهر معًا.

يا إلهي.

ذلك الشعور. ذلك الشعور مخيف. مرعب، فتَّاك، مزلزل، ولذيذ.

ذلك الشعور مألوف.

لا. هذا غير ممكن. صرختُ. ضربتُ قبضتي على قلبي. صرختُ. بكيتُ محاولةً طرد الأفكار التي تتردد في رأسي.

جاءت الطرقة على الباب وتبعها سؤال إيزل، "خلود، هل أنت بخير؟".

اندفعتُ إلى الأمام. استندتُ على الحوض بكلتا يديَّ، وتقيأتُ.

شهقتُ، بكيتُ، وتقيأتُ مرة ثانية.

دفعتْ إيزل الباب. وجدَتني انهرتُ على الأرض. ساقاي مطويَّتان تحتي. خدِّي ملتصقٌ بالحائط. خصلات شعري المبتلَّة ملتصقةٌ بوجهي. بعضٌ من القيء على صدري. حِمم من النار صعدت من بركان معدتي وحفرت أخاديد على امتداد بلعومي. النشيج صار مرحلة ثالثة للتنفس بين الشهيق والزفير.

ربَّتت إيزل على كتفي، ووضعت يديها تحت كتفي تحاول إنهاضي. رفعتُ يدي لأستند على الحوض ودفعتُ نفسي إلى الأعلى. أحاطتني إيزل بذراعيها والتصق ظهري بصدرها الطري. سرت الرعشة في بدني وملتُ مجددًا على الحوض لأقذف ما بقي في معدتي من الحِمم الصفراء.

لم أستطع استيعاب ما يحدث لي. أي سحر يتدفَّق من مسامِّ إيزل. لا أتذكر أني كنتُ من قبلُ هشةً كما الآن. ربما باستثناء تجربة حب (هل كان حبًا؟) قصيرة مع عدنان. عدنان الذي طهَّرتُ نفسي لأجله، واحتضنتُه هنا خلال أيام نقاهته، ثم ذهب ليكتب روايته الأولى، وحين كتبها، وحين قلتُ له أحبك، اختفى. اختفى وترك لي مخطوط روايته التي يقول عنوانها كل شيء عن قصتي مع الحب. ساعي البريد لا يعرف العنوان. ذاك هو عنوان الرواية.

جاهدتُ نفسي وابتسمتُ لإيزل التي بدأت تجزع.

"أعتقد أنه تسمُّم غذائي"، قالت.

طمأنتُها أن الأمر بسيط.

الآن أعرف كم كنت ساذجةً وأن الأمر لم يكن بسيطًا.

قلتُ بأني أحتاج للنوم قليلًا وسأتحسن. نظفتُ وجهي وصدري، وتركتُ رأسي قليلًا تحت الماء البارد. أخبرتُ إيزل أن تتصرف كأنها في بيتها، وذهبتُ إلى الفراش. أظنني لم أستغرق طويلًا حتى غفوتُ، لكنها لم تكن غفوةً مريحةً أبدًا. تبعني أريج عطر إيزل إلى عالم الأحلام. لم تكن المشاهد واضحة، لكن الرائحة كانت تعبق من كل مكان. المشهد الأول كأنه فصل دراسي. على السبورة درسٌ ما حول الإعراب الذي لم أفقه منه

يومًا شيئًا. التلاميذ يَبدون نيامًا. ساد الضباب حتى حجب الرؤية تمامًا ثم حين بدأ يتلاشى وجدتُ نفسي ممددةً على أريكة الكشف الطبي. الإضاءة خافتة. الجو يعبق برائحة شمع البتشول، ومن سماعات مدفونة في السقف يتدفق إيقاعٌ موسيقيٌّ متوحش. لا شك أنه مقطعٌ من كارمينا بورانا. لا أعتقد أن تلك الكانتانا كانت تُعزف في العيادة، لكنه سحر عالم الأحلام لا شك. شعرتُ أن هذه الزيارة الضبابية ليست الأولى لهذا الحلم. هذا حلمٌ من زمن الطفولة كنتُ قد نسيتُه تمامًا، وغاب عن ذاكرتي كأنه لم يكن، حتى عادت شذراتٌ منه يومذاك.

فتحتُ عيني وتركتُ الدموع تنساب.

~~فكرتُ أن ذلك الحلم قد لا يكون حلمًا خالصًا. ربما كنتُ أحسبه حلمًا حين كنتُ صغيرة، لكني بعد أن فتحتُ عيني هذه المرة فكرتُ، بالأحرى حدستُ دون إدراك محدد، في احتمال أن تكون تلك المشاهد شظايا ماضٍ أحاطته ميكانيزمات النفس الدفاعية بأسوار عالية، غير أن طراوة جسد إيزل، لسبب ما، أو ربما هو عطرها، هدَّت تلك الأسوار كأنها قصر رمل ساوته موجةٌ برمال الشاطئ.~~

جسدي ما زال ينتفض. ظهري مبتلٌّ بالعرق والبلل اللزج بين ساقيي يثير اشمئزازي. وصلتني من تحت باب الغرفة رائحة طبخ زكية. غالبتني بسمةٌ باهتة. يبدو أن إيزل لم تجلس مكتوفة اليدين. نظرتُ إلى الساعة

فوجدتُها تجاوزت منتصف النهار. مرَّت أربع ساعات من التقلُّب المرير على الفراش بحثًا عن سكينة امتصَّها ضباب الأحلام الكئيبة.

خرجتُ من غرفتي إلى الحمَّام. سمعتني إيزل والتفتت إليَّ. أظنها في الخامسة والعشرين من عمرها. لكنها حين تبتسم تبدو كأنها طفلة. طفلة في الخامسة عشرة من عمرها.

"دقائق وسيكون الغداء جاهزًا"، قالت إيزل ثم خفضت رأسها. "معذرة خلود. سمحتُ لنفسي بالتطفل على مطبخك".

ضحكتُ، وتفاجأتُ من نفسي أني أخيرًا ضحكتُ.

"البيت بيتك إيزل". قلتُ بالإسبانية.

اقتربتُ واستندتُ على إطار باب المطبخ. قاومتُ هذه المرة بياض فخذيها الذي يشدُّني بقسوة ونظرتُ إلى عينيها مباشرة. "لا أعرف عنكِ شيئًا يا إيزل. لكن بشكل ما أحس كأنك أختي". بدت لفظة أختي غريبة، مصطنعة، غير حقيقية، ادعاءً كاذبًا، لكني قلتُها بسرعة وتابعتُ كلامي. "سأستحمُّ الآن، وبعد الغداء سنجلس للحديث". حاولتُ أن أرسم على وجهي ابتسامة مشجعة. "إذا كنتِ مستعدةً للحديث سيسرُّني سماع حكايتك". اكتفت إيزل بإيماءة من رأسها. أومأتُ لها بدوري، وأكملتُ طريقي نحو الحمَّام.

على ذكر الحمَّام، أريد الذهاب الآن إلى الحمَّام. نداء الطبيعة كما تعلمون.

بالمناسبة هل تعرف من اخترع الحمَّام؟ المرحاض أقصد. اقتبس الإنسان فكرة المرحاض من الحيوانات إذ تقضي حاجتَها في حفرة ثم تغطيها بالتراب. تكشف حفريات أثرية وجود المرحاض في الهند منذ ثلاثة آلاف سنة، ووثائق أخرى تُظهر وجود المرحاض في الصين منذ أربعة آلاف سنة... لكن، لن أثقل عليك، بحديث المراحيض الآن.

كان الغداء شهيًّا. تعرف إيزل كيف تتحكم في خلطات التوابل ودرجة حرارة الطبخ أفضل مني. أتبعت الغداء بإبريق شاي، وخرجنا مجددًا إلى الشرفة. لكنه الظهر الآن، نوافذ البنايات الأخرى مشرعةٌ والشارع مكتظ. لم يعد مناسبًا أن تكتفي إيزل بقميصي القصير. ارتدت ملابسها، وأراحني ذلك كثيرًا. لكني بقيتُ طويلًا غير قادرة على استيعاب نفسي، كيف كنتُ هشةً أمامها صباحًا، أنا التي أقضي كل ليلة مع رجل مختلف أو أكثر.

حان الوقت للسؤال الأساسي، وما عاد بالإمكان تأجيله.

"لماذا كنتِ تريدين الانتحار؟".

احتضنتْ إيزل كأس الشاي بكفَّيها وخفضتْ رأسها. حدَّقتْ طويلًا في أوراق النعناع التي أضافتها إلى كأسها. مرَّ أكثر من دقيقة قبل أن ترفع رأسها. رأيتُ هذه المرة وجهًا مختلفًا. لا أملك ناصية اللغة كما عدنان لأصف وجهها بدقة. كل ما يمكنني قوله إن نضارة وجهها اختفت تحت طبقات من الألم والحزن والمقت والندم. لا أعرف إذا كان حدسي بذلك الخليط دقيقًا، لكن ذلك ما شعرتُ به فعلًا، ولا أملك لحدسي تفسيرًا.

"لا أعرف كيف أو مِن أين يمكن أن أبدأ. كما قلت صباحًا البدايات كثيرة".

"لكن لا شكَّ أن النهاية واحدة".

رفعتْ إيزل حاجبيها، وبدا أنها سهَت مجددًا في خواطرها.

"دعي البدايات مؤقتًا. ما رأيك أن تنطلقي من النهاية؟".

"لا أظنني"، عضَّت إيزل شفتها السفلى وتنهَّدَت، "لا أظنني كنت سأملك الجرأة للانتحار فعلًا. حتى لو لم تكوني أنت حاضرةً ما كنتُ لآخذ الخطوة الأخيرة وأقفز إلى البحر"، تنهَّدَت مرة أخرى. "كل ما حدث لي كان رد فعل ليس إلا. كنتُ دائما أُجَرُّ إلى ردود الأفعال ولم أبادر يومًا بأي فعل. حتى مقتل العميد ش كان غير مقصود لذاته".

أخرجتْ إيزل هاتفها وتصفحتْه بضع ثوانٍ ثم مررته إليَّ.

قرأتُ العنوان: "انتحار ضابط في المخابرات المغربية في طنجة"، وانتقلتُ إلى الخبر: "بعد أسبوع من الإشاعات المتناثرة أصدرت مديرية مراقبة التراب الوطني، المعروفة لدى العامة اختصارًا بـ الديستي، بيانًا صحفيًا تؤكد فيه أن الضابط المنتحر الذي قفز من شرفة فيلَّته في منطقة سيدي قاسم، الاثنين الماضي، يعمل فعلًا في المديرية برتبة عميد. لم يترك الهالك أي رسالة يشرح فيها دواعي الانتحار، في حين لم يختف

شيءٌ من البيت ولا توجد أي آثار لعراك، مما يتركنا حصرًا أمام فرضية انتحار الهالك. شاهدٌ عيانٌ أفاد للصحيفة أن الهالك كان يستقبل في الفيلَّا، بشكل دوري، فتيات افترض الشاهد من لباسهن أنهن مومسات. لم يتطرق بيان المديرية لهذه النقطة في حين رفض مسؤول التواصل في مديرية طنجة للأمن الوطني التعليق. حاولنا التواصل مجددًا مع الشاهد العيان، الذي يعمل حارسًا للسيارات، لكنه لم يكن متاحًا وأشار الجيران إلى أنه متغيبٌ عن المكان منذ أيام".

أعرف أن عددًا كبيرًا من الفتيات المحترفات يعملن، مرغَمات، مخبرات لرجال شرطة وضباط الديستي وحتى لأعوان السلطة من الدرجة الدنيا. أعرف أن بعض الرجال مخلصون لعملهم ويحاولون تجميع وتحليل أي معلومات تأتي بها الفتيات عن زبائنهن. لكن أعرف أن الكثيرين من أولئك الضباط لا يفعلون سوى ابتزاز الفتيات، يقتطعون نسبةً من دخلهن وأحيانًا ساعات من وقتهن. أعتقد أنني أعرف أسماء كل أولئك الضباط. لكني لا أعرف أحدًا منهم يأخذ الفتيات إلى فيلَّات شاطئ سيدي قاسم.

كأن إيزل قرأت أفكاري. قالت بصوت متقطع يكاد البكاء، الذي تكبته، يخنقه: "لم يكن العميد ش يشغِّل مومسات محترفات. بل كان يدير شبكة خاصة به من نساء خارج مجال الدعارة جنَّدهنَّ بنفسه للإيقاع برجال يحددهم سلفًا. أحيانًا يهدف إلى تجميع معلومات تنفلت من ألسنتهم المتعتعة بالسُّكر. لكنه غالبا يهدف إلى تصوير الجلسات ثم ابتزازهم".

شهقت إيزل وغطَّت وجهها بكفَّيها. "كنتُ واحدةً من النسوة اللواتي أوقع بهنَّ العميد ش وأرغمني على العمل في شبكته. اصطادني من محكمة الأسرة حيث كنتُ تائهةً بين أروقتها، وحيدةً، طيلة أشهر لإتمامي إجراءات طلاقي. عرض عليَّ مساعدته لإنهاء القضية فورًا، مقابل مساعدة الإدارة للإيقاع بجاسوس إسباني. أطبق عليَّ الصياد بلا رحمة". قالت من بين نشيجها وأضافت قبل أن تستسلم لنوبة من البكاء: "في البداية فهمتُ أن طلباته لصالح الأمن الوطني. لكن عرفتُ لاحقًا أني لستُ وحدي وأنه يستغلنا لخدمة مصالحه الشخصية. كنتُ قد تورطتُ آنذاك ولم يكن أمامي من مفر".

شعرتُ بصدري يضغط على قلبي. سمعتُ قصصًا مختلفةً عن فتيات دُفعن دفعًا لممارسة الدعارة. القصص الأسوأ، بالنسبة إليَّ، كانت قصص الشابات اللواتي يدفعهنَّ أباؤهنَّ نحو بيع أنفسهن، ويستقبلونهنَّ كل صباح لأخذ أجرة الليلة. ما تحكيه الآن إيزل لا يقلُّ سوءًا عن ذلك.

"لا بأس عليك حبيبتي"، اقتربتُ منها ومسَّدتُ على ذراعها. "أعتقد من الأفضل أن تقصّي لي الحكاية من البداية".

أومأتْ إيزل. حضنتُ كفَّها وضغطتُ قليلًا حتى استكانت وتوقفت عن البكاء. عدتُ إلى مقعدي، وبدأتْ إيزل تحكي من البداية.

أجزم، سيدي المفتش، أنكم تعرفون تفاصيل حكاية إيزل من ملفِّها لديكم. لكنكم أمرتم أن أسطر اعترافًا مفصَّلًا وأن أكتب كل شيء أعرفه/أتذكره، ولذلك سأضمن حكاية إيزل مع حكايتي، وطبعًا حكاية عدنان الذي علمني كل شيء.

كان عمرها أربعًا وعشرين حين تعرفتْ إيزل على هشام، وكان يكبرها بعشرين عامًا.

كل الزميلات حذَّرنها منه في يوم عملها الأول. حسنًا، لم تكن تحذيراتٍ جديةً بقدر ما كانت مهاتراتٍ من القيل والقال، نميمةً تتفرَّغ لها فتيات الصحيفة كلما التقين عند آلة إعداد القهوة وخلال استراحات الغداء وخلال ركوب المصعد صعودًا ونزولًا، وما بين كل تلك الأوقات.

بعد أن حصلتْ على الإجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من كلية الآداب في مدينة مارتيل عادت إلى طنجة ودرستْ لمدة عامين في مدرسة الملك فهد العليا للترجمة لتحصل على دبلوم مترجم تحريري، كمترجمة محترفة، بدرجة ماجستير، بين اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية، ثم انضمَّت مباشرة لفريق الترجمة والتحرير في "أزمنة طنجة"، المؤسسة الإعلامية الوحيدة في المدينة التي ترى إيزل أنها تعمل بحدٍّ أدنى من المهَنية والاحترافية الصحفية.

تعرف إيزل أن الصحافة الورقية تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة في المغرب، ليس لأن الصحف توقفت عن الصدور فهي لن تتوقف عن الصدور طالما أنها تحصل على نصيبها من كعكة اقتصاد الريع، بل لأن القرَّاء عزفوا عنها مهاجرين إلى صحافة الإشاعة والأخبار الزائفة على الإنترنت التي لا هدف لها إلا رفع النقرات وعدد الزيارات، بأي طريقة وبكل طريقة. ثمة استثناءات قليلة وأحدها هو الصحيفة المحلية "أزمنة طنجة" التي تصدر مرتين في الأسبوع، كلَّ اثنين وخميس، مع نسخة إلكترونية تحدَّث فور التوصل بأي خبر جديد. أما غالبية الصحف الأخرى فهي تصدر فقط لضمان حصول أصحابها على ملايين الدعم، التي يحلبونها من أثداء الحكومة، بجانب الإعلانات الإجبارية بتهاني مناسبات الأعياد الوطنية والدينية التي يبتزُّونها من أصحاب الشركات الخاصة ومدراء المؤسسات الحكومية.

للتذكير سيادة المفتش، هذا كلام إيزل وآراؤها الشخصية. تعرفون أنني عازفةٌ عن السياسة ولا رأي لي حول الأحداث الجارية.

جاءت إيزل لتعمل ولتتعلم ولتحصل على الخبرة المطلوبة في انتظار الفرصة التي ستنقلها إلى غرفة الترجمة في الأمم المتحدة، ولا وقت لديها لتعيش قصة حب جديدة. لهذا لم تهتمَّ بكلام زميلاتها اللواتي حذَّرنها من العينين القانصتين لهشام اللتين تتابعان بتلذذ كل المفاتن الأنثوية، قبل أن يرمي بكلماته العذبة لاصطياد الوافدات الجديدات والزائرات. في

الحقيقة هنَّ يبالغن، فهشام، كما ستعرف إيزل لاحقًا، رغم أنه يستحقُّ عن جدارة لقب دون جوان إلا أنه كان يمارس ألاعيبه بعيدًا عن مكان عمله ولم يكن يقترب من أي واحدة في الصحيفة. ربما لهذا السبب كنَّ يؤلِّفن عنه الإشاعات، لأنه كان بعيدًا عنهن، أو ربما لأنهنَّ كنَّ يسئن تأويل نظراته، الناعسة، ليس إلا.

لم تكن إيزل تهتمُّ بذلك فلا نية لها أن تسمح لأي رجل بالاقتراب منها. لا تريد أي حب جديد بعد التجربة العاصفة التي مرَّت منها خلال سنوات الكلية الثلاث وتطلَّبت منها عامين بعد ذلك للتخلُّص من آثارها. لا تريد شيئًا من ذلك وعيناها مصوَّبتان على حياة مهنية واعدة. لكنها كانت بريئة جدًا ولم تكن تعلم شيئًا عما تخبئه لها الأيام. على غفلة منها سيأتي إعصار الحب الذي سيربطها وهشامًا، وسيُختم الحب زواجًا وسيثمر الزواج حملًا غير مخطَّطٍ له وطفلًا مجهَضًا قبل اكتمال نموِّه، وستنقلب حياة إيزل رأسًا على عقب.

بطل تجربتها الأولى في الحب كان اسمه رشيد، وهو لم يحمل من رشد اسمه شيئًا. المشترَك بينهما شيء واحد لا غير، كلاهما يدرسان التخصص نفسه ويشتركان في كل الحصص، ولا يجمع بينهما أي شيء آخر. على المستوى البدني هي نحيفة (كانت نحيفةً آنذاك، أما حين تعرفتُ عليها كانت قد صارت مكتنزةً قليلًا. ليست سمينة، بل مكتملة النمو بارزة المفاتن). كانت متوسطة الطول تميل إلى القِصَر، وهو طويل عريض

يميل إلى الضخامة. شعرها حريري طويل يصل إلى أسفل ظهرها وأنفُها دقيق وشفتاها رقيقتان، وهو ذو أنف أفطس وشفتين غليظتين ورأس حليق على الدوام. هي اختارت هذا التخصص لأنها تطمح لاحتراف الترجمة، وهو اختار التخصص لأن الجميلات يخترنه وهو لا حاجة له بالدراسة ففي النهاية هو الوارث الوحيد لمصنع النسيج الذي يملكه والده في طنجة. لم تعرف إيزل هذا إلا لاحقًا.

لقاؤهما الأول كان في أسبوع الدراسة الأول. تتذكر إيزل كل التفاصيل ووصفتْ لي اللقاء كما تصف فيلمًا سينمائيًا، مشهدًا مشهدًا. تغيَّبت أستاذة الأدب الفرنسي. انتظر الطلبة ربع ساعة في المدرج ثم بدؤوا يغادرون تباعًا. كانت إيزل تجمع أوراقها وترتِّب حقيبتها استعدادًا للمغادرة حين سقط عليها ظلٌّ ضخمٌ نطق بفرنسية أنيقة وهو يمدُّ يده للمصافحة، "اسمي رشيد. اسمحي لي بشيئين، أولًا أن أعبِّر عن إعجابي بجمالك وبأناقتك وبذكائك—".

"ذكائي؟ كيف استنبطتَ ذلك يا متذاكي؟". قاطعتْه ساخرةً بفرنسية لا تقلُّ أناقةً عن فرنسيته، وحدَّقتْ في عينيه بتحدٍّ.

"عرفتُ ذلك من مداخلتك خلال حصة تاريخ الآداب". قال بعينين أسكنهما قليلًا من العتاب، وأشار إلى يده المعلَّقة، وأضاف بالإنجليزية: "هل ستتركين يدي معلقة آنسة...".

"إيزل. إيزل العمراني". رفعت يدها وصافحتْه، رغم امتعاضها من غروره الذي ظهر لها من استعراضه المفرط لقدراته اللغوية.

"تشرفنا". ضغط على يدها بلطف ولم يحاول إفلاتها. "أما الشيء الثاني فهو أني أريد دعوتك إلى فنجان قهوة، أم تفضلين كأس عصير؟ ثمة مقهى هادئ قريبًا من هنا".

لم يتردد. يبدو أن هذا الفتى يعرف جيدًا ما يريده. أما إيزل فلم تكن تعرف ما تريده هي الفتاة الغِرَّة الساذجة اجتماعيًا، رغم ذكائها الواضح، القادمة من أسرة صغيرة وبيت لم تغادره طيلة سنوات عمرها التسعة عشر، إلا إلى المدرسة ذهابًا وعودة.

ارتبكتْ من دعوته المباشرة. أرادت الرفض كما تفعل منذ سنوات الدراسة الثانوية حين كانت تصدُّ عنها كل زملائها المراهقين، إلا أنه لم يمنحها الفرصة. مرَّر لها حقيبة يدها وأشار لها بيمينه الممدودة وبانحناءة مسرحية خفيفة وقال: "النساء أولًا". ولم ترفض. تمكَّن بشخصيته الطاغية أن يفرض نفسه عليها، وستبقى أسيرةً له طيلة ثلاث سنوات حتى ينفضها في الأخير كما ينفض سجائره.

النساء أولًا. هل تعرف إيزل قصة هذه العبارة التي يُفترض أنها تدلُّ على احترام المرأة، لكنها حقيقةً تدلُّ على عدم الثقة بالنساء؟ لا أظنها تعرف: أحبَّ شابٌّ من عائلة ثرية، عاش في إيطاليا القرن الثامن عشر،

فتاةً من عائلة فقيرة، لكن عائلته، كما هي العادة منذ الأزل، رفضتْ هذا الارتباط، فقرَّر الحبيبان الانتحار معًا بالقفز من أعلى جرفِ وادٍ. قفز الشاب أولًا، وحين رأت الفتاة سقوط حبيبها تراجعت عن قرارها وعادت إلى قريتها. انتشرت القصة، وظهرت عبارة "النساء أولًا"، ضمانًا حتى لا تتراجع المرأة عن قرارها. أما في عصرنا فالأمر لا يعني ذلك كما لا يعني بالضرورة الاحترام، بل هي فقط رغبة الرجل في أن يتملَّى مؤخرة المرأة.

"كانت علاقةً بريئةً لم تخلُ، بين وقتٍ وآخر، من المتع الصغيرة والسريعة المسروقة خلف أشجار الممشى في الكلية". قالت إيزل واحمرَّت وجنتاها. صارت فتنتها طاغية. جفَّ حلقي وتسارعت دقات قلبي مرةً أخرى. نفضتُ تلك الأفكار من رأسي وحاولتُ التركيز مع حكايتها.

اكتفت إيزل بالقبلات المسروقة في أماكن مختلفة، ولم تسمح له بأكثر من ذلك رغم طلبه المزيد أكثر من مرة. لم تفلح شخصيته القوية في أن يحصل منها على ما يريد. كانت تحبه، ولم تكن واثقةً من حبه لها. كان رقيقًا أغلب الوقت لكنه كان أحيانًا يفقد السيطرة ويكشف عن قسوة تخيفها.

ذات مرة دعته لمشاهدة فيلم في السينما. قرأتْ من قبلُ عن ذلك الفيلم وتشوَّقت لمشاهدته. هو فيلم "صِبا (BoyHood)". صُوِّر الفيلم

خلال فترات متقطعة امتدت إلى أحد عشر عامًا. اعتمد المخرج على طاقم التمثيل نفسه، متتبِّعًا تقدُّمَهم في العمر، كما شخصيات الفيلم. أخذت إيزل هاتفها وقرأت لي ملخص قصة الفيلم، من ويكيبيديا: "تبدأ القصة حين يواجه ماسون، الطالب المدرسي ذو العينين الحالمتين اضطرابات الحياة. أمه أوليفيا مكافحة وغير متزوجة، تكرِّس حياتها لأجله وتقرِّر نقله وشقيقته سامنثا إلى هيوستن، بعد ظهور والدهما الغائب منذ فترة، والذي يعود من ألاسكا ليدخل عالمهم مرة أخرى. هكذا تبدأ الحياة المتدفقة من دون توقف، من خلال مجموعة من الآباء، الأمهات، زوجات الأب، أزواج الأم، الفتيات، المعلمين، أرباب العمل، حيث يتعايش ماسون ليجد طريقه الخاص نحو النضج". اعتُبِر الفيلم علامة فارقة في مجال صناعة الأفلام من قِبل العديد من نقَّاد الأفلام البارزين. صراحةً لم تُثِرني قصة الفيلم، ويبدو أن رشيد كذلك شعر بمثل شعوري. بعد دقائق قليلة أحسَّ بالملل ولم يتحمَّل البقاء. أراد مغادرة قاعة السينما لكنها لم ترِد. أطبق على معصمها وجرَّها إلى الخارج. آلمها كثيرًا وحين صرختْ أرخى يده فأبعدت يدها لتجد أن أصابعه طبعت بصماتها على معصمها وستبقى الآثار ليومين كاملين. أحسَّت لبرهة كأنه كسر عظام يدها. نظر مندهشًا إلى يدها وطفق يعتذر مؤكدًا أنه لم يقصد. ترقرقت عيناها بالدموع. تجمَّد واقفًا لثوانٍ ثم احتضنها، وهمس في أذنها: "آسف حبيبتي".

تلك كانت أول "حبيبتي" يقولها، وقد مرَّ على علاقتهما سبعة أشهر وخمسة أيام وعشر ساعات. كانت تحسب ذلك بدقة. دفنت وجهها في صدره، وابتسمت، ثم بكت. بكت حتى ابتلَّ قميصه بأمطار عينيها.

ذات مرة كانا ضيفين في حفلة عيد ميلاد أحد أصدقاء رشيد، في طنجة. جاء بها بسيارته من مارتيل ووعدها ألا يتأخرا وبأن يعودا قبل الحادية عشرة، قبل أن تقفَل أبواب الحي الجامعي. كان الحفل في إحدى فيلَّات حي السوريين، حفلًا أراد به أصحابه التشبُّه بحفلات المراهقين الأمريكيين. كان عدد الحضور كبيرًا. كلهم في بداية العشرينات من عمرهم أو أقلَّ قليلًا. أغلب الفتيات كنَّ بملابس لم تتخيل إيزل أن ترى فتيات يلبسنها خارج المسلسلات الأمريكية. تعثرتْ في مشيتها وارتبكتْ. أحسَّتْ كأنها انتقلت إلى عالم مختلف تمامًا. شعرتْ بنفسها كأنها فتاة قروية من القرن الماضي بتنورتها الطويلة وقميصها الذي لا يكشف من عنقها إلا القليل، مع سترة تغطي يديها حتى المعصمين.

استأذنت رشيدًا أن تذهب إلى الحمام. تخطَّت بصعوبة الأجساد المتلاصقة. دفعت باب الحمام وتجمَّدت في مكانها أمام فتاتين تتمايلان بجنون، الشفتان تمصَّان الشفتين والأصابع تتجول بنهم على كامل الجسد. شهقت إيزل. أحست بالدوار. لم تستطع التحمل. شعرت بالاختناق. أرادت المغادرة فورًا، واستغرقت بعض الوقت قبل أن تعثر على رشيد. وجدته جالسًا رفقة أصدقائه يمررون فيما بينهم سيجارة

مشتعلة تنبعث منها رائحة نفَّاذة غير معهودة عندها، وعلى الطاولة أمامهم قنانيٌّ زجاجيةٌ لأنواع مختلفة من البيرة. طبعًا إيزل لم تعرف آنذاك أنها بيرة، كل ما عرفته أن تلك المشروبات هي خمرٌ لا محالة. لاحقًا بعد وفاة طفلها عدنان وتعرُّفها على العوالم السرية التي جرَّها إليها العميد ستبدأ بإدراك أنواع الخمور وكيف يختلف كل شراب منها عن الآخر. راعها أنْ رأتْ فتاةً في مثل عمرها جالسةً على حِجر أحد الشباب تشاركهم سيجارتهم وكأسهم، وتنورتها القصيرة منحصرةٌ تمامًا عن فخذيها وتكشف ثنيَّات الشفرين لكل قادم من الباب أن يتلصص ولو أنه لا حاجة للتلصص هناك حيث كل الأجساد متاحة.

أشارت إيزل، وهي تقاوم التقيؤ، إلى رشيد وضغطت أصابع يديها المتشابكتين إلى معدتها. نهض إليها متثاقلًا بعد أن سحب نفَسًا طويلًا من السيجارة.

"ماذا هناك حبيبتي؟ خذي راحتك واستمتعي بوقتك".

"لا أستطيع التحمُّل. دعنا نغادر".

مطَّ رشيد شفتيه ووضع يديه على خصره، حين قالت ذلك. أحسَّت إيزل أنه سيرفض فاقتربت منه أكثر وأرغمت نفسها على استنشاق الرائحة الملتصقة به من التدخين. أمسكت يمناه بيديها ونظرت إلى عينيه مباشرةً ثم أرْخت جفنيها وقالت: "أرجوك حبيبي. دعنا نغادر".

"لا".

لم يقل شيئًا غير تلك اللا القاطعة الرافضة، واستدار عائدًا لمجلسه مع ندمائه. تجمَّدت إيزل في مكانها غير مصدِّقة. بدأ صدرها يعلو ويهبط ودقَّات قلبها تتسارع. استدارت على عقبيها وخرجت بسرعة قبل أن تخونها عيناها أمام الآخرين. ابتعدت قليلًا عن الفيلَّا التي ما زال يصلها منها صوت الموسيقى الصادحة، ثم سلَّمت نفسها للبكاء.

أقسمت ليلتها، وقد مرَّ عامان على تعارفهما، أن تقطع علاقتها نهائيًا بهذا الوغد المدعو رشيد وهي تسرع في خطوها حتى تكاد تجري لتقطع المسافة القصيرة بين حي السوريين والمحطة الطرقية. وجدت الحافلة الأخيرة نحو تطوان قد انطلقت فركضت لتلحق بها عند بوابة الخروج. الساعة تشير إلى التاسعة ليلًا. أمامها خمسة وخمسون دقيقة قبل الوصول إلى تطوان ثم عشرون دقيقة أخرى قبل الوصول إلى الحي الجامعي في مارتيل. لحسن حظِّها أنها كانت نزيلة الحي الجامعي في تلك السنوات حيث كانت الأبواب تبقى مفتوحةً حتى منتصف الليل، وليس كما الآن حيث فرضت وزارة الداخلية إقفالها عند الثامنة مساءً.

جاءها رشيد في اليوم التالي يعتذر. اعتذر طويلًا ولم يجد أمامه إلا أذنين مصمتتين. تغيَّب بعدها لأسبوع كامل عانت فيه إيزل من الحزن والاكتئاب. لم يكن يشغلها، وهي تتحقق من هاتفها بين دقيقة وأخرى،

سوى الحزن على العامين اللذين ضيَّعَتهما مع هذا الشاب الرقيع الذي تخلى عنها بسهولة لمجرد أنها رفضت اعتذاره ولم يبذل جهدًا كبيرًا للاحتفاظ بها.

حين مرَّ الأسبوع عاد رشيد، وفي الحصة الأولى لذلك اليوم، عند الثامنة صباحًا بالضبط، وقف بجانبها ووضع على طاولتها ما يبدو أنه صندوقٌ صغيرٌ غُلِّف بأناقة ثم ذهب دون أي كلمة. لم تملك صبرًا للانتظار فمزَّقت ورق الهدايا الذي غُلِّف به ذلك الصندوق. فتحت الصندوق وشهقت. أمسكت الورقة الصغيرة المكتوب عليها "آسف حبيبتي". تأملت فيها قليلًا ثم عادت للصندوق الأبيض الذي يحمل على وجهه صورةً مطبوعةً لواجهة الهاتف الذكي الذي طالما حلمت به. وضعت البطاقة جانبًا وفتحت الصندوق بلهفةٍ وابتسمت طويلًا وأناملها تتلمَّس برقة شاشة الإصدار الأحدث من هاتف آيفون ذهبي اللون.

كانت تحبُّه ولم يكن بحاجة لتلك الهدية الفخمة لتسامحه. وقد سامحَته المسكينة غير عالمة بأي حزن يخبِّئ لها.

مضى عامهما الثالث بسرعة دون أن تعكِّره أي أحداث، إلا خلافات صغيرة من الخلافات المعتادة بين أي زوجين، أو حبيبين. لم يتحدثا يومًا عن الزواج، لكنها اعتبرت الأمر تحصيل حاصل. بدأت تسمح له بإدخال يده تحت ملابسها. يضغط نهديها ويداعب، بحرص أصرَّت عليه، الجزء

الخارجي من عضوها، كما سمحت لنفسها أن تستكشف، والحمرة تعلو دومًا وجنتيها، العضو الصلب بين ساقيه. لم يَعِدها بأي شيء لكنها فهمت أن الزواج هو النهاية الطبيعية لقصة حبهما، وقد كانت مخطئة، فالنهاية جاءت مباغتةً بشكل لن يتحمله قلبها الصغير.

انتهت الدراسة وتجمَّع طلبة الكلية، في يوم إعلان النتيجة، أمام لوحات النتائج. جاءت إيزل ضمن الخمسة الأوائل، وحصل رشيد على نتيجةٍ لا بأس بها. باركت إيزل لحبيبها نجاحه وبارك لها تفوُّقها، ثم صمتت باحثةً عن صيغة السؤال المناسبة.

"ما هي خطوتك التالية؟".

قالت، ولم يكن ذلك هو السؤال الحقيقي الذي أرادت أن تسأله. أرادت أن تسأله عن مستقبلهما وخطوتهما التالية معًا ومتى سيأتي مع عائلته لخطبتها. وقد أجاب عن ذلك السؤال وأجاب عن كل أسئلتها التي لم تسألها.

قال بأن والده صفَّى أعماله في طنجة. باع المصنع والعقارات التي يملكون، وسيرحلون هذا الصيف إلى إسبانيا. لم يعُد الأب مطمئنًا للعيش في المغرب. سيستثمر جزءًا من ثروته لشراء عقارات في إسبانيا وهو ما سيمنحه تلقائيًا حق الحصول على الجنسية.

مطَّ رشيد شفتيه وكرَّر عبارة والده: "لم يعُد في هذا البلد ما يستحق العيش". ثم انحنى وطبع قبلةً على خدِّها وأضاف: "الوداع حبيبتي". وقفز إلى سيارته وغادر.

لم يستغرب أحدٌ من الذين رأوا إيزل تسقط مغشيًا عليها. حسبوها مجرد فتاة أخرى فقدت الوعي لأنها تفاجأت بالرسوب.

قامت لاحقًا بعد أن رشَّت عليها بعض الزميلات قطرات من الماء. قامت صامتةً مصفرَّة الوجه وأخذت طريق عودتها إلى طنجة حيث قضت الصيف كاملًا في البيت تكاد لا تخرج منه أبدًا، إلا للضرورة القصوى. أغرقت نفسها في المذاكرة والأبحاث استعدادًا لمرحلة الماجستير. أقسمت أنها ستقفل على قلبها ولن تترك رجلًا يخطو إلى هناك أبدًا. استطاعت أن تحفظ قسَمها طيلة العامين التاليين، لكن أمور القلب لا تنفع معها الأيمان ولا حتى أغلظها. على غفلة منها سيتسرب حب هشام إليها، على مهل وخطوة خطوة، وكذلك سيحدث مع هشام.

خلال انشغالها في وظيفتها الأولى متنقلةً من ترجمة إلى أخرى، خلال انشغالها بأمورها الحياتية اليومية، ناسيةً متناسيةً أشياء اسمها الحب والرجل والزواج، خلال تلك الانشغالات، طرق الحب بابها وأطلَّ برأسه، باستحياء بدايةً قبل أن يهجم عليها بكل عنفوان الحياة. شلَّلًا جارفًا أخذها إلى عوالم لم تحلم يومًا بزيارتها، عوالم لم تتوقع قطعًا وجودها. نزل عليها

الحب كصاعقة، مزَّقها إربًا وأعاد تشكيلها كيفما شاء. جاء الحب وحوَّل حياتها فوضى عارمةً وجعلها تعيش سعادةً اعتقدت أنها لن تنقضي، ولم تنقض إلا بعد ظهور أعراض الحمل غير المخطَّط له.

كانا قد اتفقا على تأجيل الإنجاب إلى سنوات لاحقة. إيزل لا تزال صغيرةً وتفضِّل التركيز على حياتها المهنية، وهشام لديه بنتان من زوجته الأولى، كما أن الطلاق استنزفه ماديا وسيصعب عليه إعالة طفل جديد. لكن الاعتماد الحصري على العزل مقامرة. هي رفضت تناول حبوب منع الحمل. أخطارها الصحية، كما قالت، أكبر من نفعها. لكنهما وجدا أيضا أن العازل الذكري يحرمهما من تلبية شهوتهما، فقرَّرا استخدام الورقة والقلم لاعتماد العزل خلال أيام التخصيب.

تنهَّدَت إيزل ودمعت عيناها. عادت نظراتها للسهو في اتجاه زرقة البحر، وسكتُّ بدوري محترمةً صمتها.

مرَّت دقيقةٌ والتفتت إيزل إليَّ، "أخشى أنني أثقل عليك بحكايتي". قلت، "لا، أبدًا". ومِلتُ في اتجاهها ووضعتُ كفي بتلقائية على فخذها. شعرتُ بحرارة لافحة تنتقل من فخذها إلى يدي، وأحسستُ بدقَّات قلبها عبر شريانها الفخذي. سحبتُ يدي بسرعة كأني أهرب من لدغة أفعى. لاحظتْ إيزل ذلك وابتسمتْ. مدَّت يدها ومسَّدت فخذي. "لا بأس

خلود"، قالت. داريتُ ارتباكي ولهفةً بدأت تطلُّ برأسها بعد دعوتها غير المباشرة. سعلتُ وسألتُها.

"ماذا بعد ذلك؟".

"مرَّ أول شهرين على ما يرام. لكن في منتصف الشهر الثالث وقع الفأس في الرأس، كما يقولون. حدستُ بشكل غامض أن حظَّنا قد نفد. لذلك، بعد أسبوعين من ذلك، وبمجرد ما تأخرتْ دورتي يومًا واحدًا حتى جريتُ لشراء اختبار الحمل المنزلي".

"وكانت النتيجة إيجابية؟".

زمَّت إيزل شفتيها، عقدتْ ذراعيها على صدرها وأومأتْ.

يومذاك انتهى شهر العسل للزوجين. لم يتقبل هشام ذلك الحمل المبكر جدًا، ولا إيزل. دخل الاثنان فترةً من الكآبة وبعض المناوشات.

"لم يكن هشام ملاكًا". قالت إيزل تحكي عن هشام مما حكاه هو لها عن نفسه. كان يحب وصف نفسه بأنه مجرد إنسان عادي له كل مزايا وعيوب الإنسان الذي تخلَّى عن الجنة وتاه في هذه الأرض الجرداء. توقَّف عن التدخين حين علم، على حين غفلة، أنه أطلَّ على منحدر الثلاثين. لكنه لم يتخلَّ عن الخمر إلا حين تمكَّن منه حب إيزل. قبل ذلك كان يدمن المرور على الحانات قبل العودة إلى البيت. علاقاته النسائية، قبل إيزل،

متعددة لدرجة أنه لا يذكر كم امرأةً عرف. صارح هشام إيزل بذلك، ولم ينقص ذلك شيئا من حبها له. لقد سلَّمت نفسها له من قبلُ وأدمنت التحليق في السماوات التي ينجح أحيانًا في إيصالها إليها.

زوجته الأولى كانت تعلم عن مغامراته النسائية، إلا أنها بعد فترة توقفتْ عن الشكوى. كانت تمانع من قبلُ. كانت تصرخ وتنتفض وتشقُّ صدر ثوبها كلما عاد إلى البيت مخمورًا، وتقلب أثاث البيت وتكسر كل ما يمكن تكسيره ثم تذهب إلى بيت والديها بضعة أيام، كلما شمَّت فيه رائحة أنثى أخرى، قبل أن يأتي معتذرًا ويعيدها إلى عشِّهما. ذات مرة لم تتحمل وأخذت طفلتها، طفلتهما الأولى، وذهبت إلى بيت والديها ولم تعد. طلبت الطلاق وحصلت عليه في لحظة انفلات عصبي من هشام. مرت بضعة أشهر ثم تدخَّل أولاد الحلال للربط بينهما مجددًا، فعادت لبيتها مع ابنتها، وبعد تسعة أشهر تالية وُلدت ابنتها الثانية. أدركت آنذاك أن الطلاق لم يعد خيارًا سهلًا، لا لها ولا لهشام، ولم تعُد بعد ذلك تمانع نزوات زوجها طالما أنه يقدِّم إليها أول كل شهر كامل مصروف البيت، ولا يعود إلى البيت ظاهر السُّكر، ولا يأتي إليها بأمراض بائعات الهوى. لا مانع لديها طالما أنها زوجته التي لا مفرَّ من العودة إليها مهما جنح. لكن أن يتزوج من أخرى؟ لا وألف لا. هي مستعدة لأن تهدم البيت عليه وعليها، وعلى بنتيهما، ولا تسمح له بالزواج بامرأة أخرى. أما أن تكون تلك المرأة شابة فتية تصغره بعشرين عامًا فذاك حلمٌ يستلزم الإعدام عليه. هشام

يعرف ذلك جيدًا، وهو لم يفكر في الزواج بأخرى من قبلُ. من قبلِ أن يتمكن منه حب إيزل. هل كان يحب زوجته آنذاك؟ سألتْه إيزل وأجاب أنه من الصعب قول ذلك. جاء الزواج بتخطيط مسبق من أخته، ولم يمانع. لم يكن يؤمن بشيء يسمى الحب من أول نظرة، إنما كان يعرف أن الحب سيأتي من الألفة والتعوُّد. يمكن القول بأنه لم يكن عاشقًا ولِهًا بزوجته، وإلا ما كان ليبحث عما ينقصه لدى الأخريات، وقد اعترف لإيزل بأن التوافق الجنسي بينه وزوجته منعدمٌ ومتعتهما المشتركة محدودةٌ جدًا، لكن سنوات الزواج الأربعة عشر لا بدَّ أن تخلق شيئًا من الألفة، خاصةً مع وجود بنتين جميلتين يعتبرهما هشام أفضل ما حدث له. الكبرى سمَّاها مها، لعيونها الواسعتين اللتين سحرتاه تمامًا حين حملها بين ذراعيه أول مرة. عمرها، يوم تعرَّف على إيزل، ثلاثة عشر عامًا. الثانية عمرها سبع سنوات. أمها أسمتها نور. لم يعترض هشام على الاسم لكنه لم يتحمَّس أن تأخذ ابنتُه اسمًا بتأثير من المسلسلات التركية المدبلجة التي كانت تبثُّها آنذاك جلُّ الفضائيات العربية على مدار اليوم. لم يتخيَّل أنه سيحبُّ يومًا امرأةً تحمل اسمًا تركيًا خالصًا. سأل إيزل يومًا عن معناه فقالت إنه يعني الخلود. اعترف لها هشام أن نقطة ضعفه هي النساء. يدرك أن ما يجذبه إلى النساء مجرد علاقات سريعة عابرة لا تطول أكثر من الشهر إلا نادرًا جدًا. لهذا كانت دهشته عارمةً حين وجد أن حب إيزل عشَّش في قلبه وفرَّخ وكبر حتى أحسَّ أن حبَّه لها لو وزَّعه على العالم كلِّه لكفى ولبقي له ما يكفيه. منحه ذلك الحب القوة ليتجلَّد ويتحمَّل أشهرًا من العذاب

بين أروقة المحاكم حتى ينفصل عن زوجته. قدَّم لها كل التنازلات الممكنة، وأفرغ لها كامل حسابه البنكي، ولم يمانع. كان يقول لإيزل أن كل ما يهمه هو أن يتخلص من المرأة التي لم تضِف لحياته جديدًا ليتفرغ للحب الحقيقي، حبه لإيزل. آنذاك كانت تطفو على عيني إيزل غمامةٌ من الحزن، لم يكن هشام ينتبه لها ولم يكن بإمكانه أن يدرك الألم الذي كانت تشعر به آنذاك وهي ترى هشامًا يخوض تجربة الطلاق. كانت إيزل تفكر بأنها ترتكب جرمًا ستعاقَب عليه مستقبلًا، وقد كانت خائفةً أشد الخوف، من أن يحدث لها يومًا ما يحرمها من أطفالها، المستقبليِّين، كعقاب لها على التسبُّب في إبعاد طفلتي هشام عن والدهما.

تطلَّب الأمر منهما بضعة أشهر قبل أن يتعوَّدا على الأمر ويبدآ استعدادات استقبال الطفل القادم، الذي عرفا من اختبار تخطيط الصدى أنه ذكر، اتفقا على تسميته عدنان. لكنهما في الوقت الذي تقبَّلا فيه مجيء الطفل قرر الجنين أن يخرج قبل أوانه. جاء وبالكاد مرت عليه سبعة أشهر في الرحم، وبعد شهر آخر في الحاضنة الصناعية لم يتحمَّل جسدُه الهشُّ وفارق الحياة.

توقفت إيزل عن حكي/تذكر/خلق قصتها وغطَّت وجهها بكفَّيها وبدأت تنشج. قالت وسط بكائها: "كل ما حدث عقابٌ إلهيٌّ على تفريقي بين هشام وزوجته وإبعاد ابنتيه عن أبيهما".

بدأ الشرخ في علاقة إيزل وهشام وصار يتسع يومًا بعد آخر. صار هشام يتأخر خارج البيت ورجع إلى عاداته في المعاقرة. عاد مرةً، والطفل لا يزال يصارع في الحاضنة، ووجدها، على غير ما يألف منها، تصلي. مغطاة شعر الرأس ساجدةً يلهج لسانها بدعاء خافت. انتظرها حتى أكملت ركعتها وسألها، بنبرة تتذكر إيزل أنها تجمع بين الغضب والتأنيب والإحباط.

"أتحسبين صلاتك ستنقذ طفلك؟".

التفتت إليه إيزل ورأت عينيه المنتفختين ووجهه المحمرَّ. نظرت إليه صامتةً طويلًا. لا شكَّ تخيَّلها هشام تستجمع أفكارها لتفحمه بردٍّ من ردودها العقلانية المعتادة. لكنها لم تقل سوى: "أستغفر الله العظيم". واستدارت تهمُّ بإكمال صلاتها، غير أن ذاكرتها قفزت بها عامًا إلى الوراء، إلى أيامها الأولى في الصحيفة.

كانت إيزل مستغرقةً في تحرير ترجمة جديدة حين طرق سمعَها أصواتُ جدال حادٍّ فقامت من مكتبها وأطلَّت على صالة التحرير حيث تأتي الأصوات.

"ليس من حقِّكم أن تفرضوا علينا أفكاركم العفنة". كان هشام يقول لكهلٍ يقف أمامه محمرَّ الوجه، وبجانبه امرأةٌ تتذكَّر إيزل أنها رأتها أكثر من مرة في المبنى.

"ماذا يحدث هنا؟". سألت إيزل هامسةً لا لأحدٍ بعينه من تجمُّع الجمهور المتفرج، فردَّت إحدى الزميلات عليها.

"ذلك الرجل محاسب لديه مكتب في الطابق أسفلنا، وتلك زوجته تعمل معه. (’أفكارنا العفنة؟ يا الله أين ذهب الاحترام؟‘ قال الرجل) كلٌّ منهما يرفض أن يصعد في المصعد مع الجنس الآخر. (’زوجتك هي التي تحتاج لتعلم الاحترام‘. قال هشام ورفع الرجل يده يهم بصفعه. تراجع هشام خطوة وتقدمت المرأة تمسك بذراع زوجها). زوجته ترفض ركوب المصعد إذا كان به رجل. أما إذا كانت هي الأسبق فإنها تمنع الرجل من الركوب معها. (’هيا بنا، لا ينفع الحديث مع هذا الشخص‘. قالت المرأة). يبدو أن هشامًا وجد المرأة في المصعد عند مجيئه صباحًا، هي طلبت منه عدم الصعود معها في المصعد، وهو رفض وصعد عنوة. وها هي ذي الآن أحضرت زوجها لتؤدب هشامًا". قالت زميلة إيزل وابتسمت في الأخير ابتسامةً واسعة. كانت إيزل تستمع لها بأذن وتركت أذنًا أخرى لمتابعة الجدال.

"لا يمكنكم أن تفرضوا علينا مبادئكم الداعشية. المصعد مِلكٌ لعموم العمارة. إذا لم تُرِد زوجتك الركوب مع الرجال يمكنها صعود السلَّم. لا يمكنها أن تمنع أحدًا من استعمال المصعد". قال هشام وبدأ بعضٌ من زبد لعابه يتجمَّع عند ركن فمه.

"ما علاقتنا بداعش؟". انتفض الرجل. أمسكت به زوجته تطلب منه مجددًا المغادرة، إلا أنه تابع حديثه: "المرأة تحدثت معك باحترام، وطلبت منك أن تحترم رغبتها ألا يصعد معها رجلٌ من غير محارمها. أين المشكلة؟ الدين المعاملة يا أخي. لم تكن لتخسر شيئًا أن تنتظر دقائق إضافيةً عوض أن تصرخ في وجهها وتُخرج عليها غضبك".

"لا شأن للدين بالمصعد. ثم إنني علماني". قال هشام، وأعاد التأكيد ضاغطًا على مخارج الحروف. "أنا علماني".

"آه. أنت منهم إذن؟".

"نعم، أنا منهم".

بدا أن الرجل سيغادر، ثم التفت مجددًا وقال بصوت مختنق بالعبرات. "لعنة الله عليك أن أهنتَ هذه المرأة المسكينة".

"نعم، لعنة الله عليَّ". قال هشام، ويبدو أنه أحسَّ برغبة قوية ليقول المزيد فلم يقاوم. "على الأقل أنا لا أدَّعي بأنني ملاك. أعرف ذنوبي وأعرف أنني لا أسبِّب أذى للآخرين. أعرف أنني يوم أتقرب من الله حقًا سأتقرب منه حبًا وليس خوفًا ولا طمعًا. ليس مثلكم. تديُّنكم شكليٌّ فقط وقائمٌ على الخوف من العذاب. تتعلَّقون بالقشور وتتركون الأهم".

لم يحاول الرجل مواصلة الاستماع، أخذ زوجته وغادرا مكتب الصحيفة. واصل هشام حديثًا هامسًا مع نفسه. كان رئيس التحرير واقفًا عند باب مكتبه. نظر إلى هشام نظرات عتاب ثم عاد لمكتبه دون أن يقول شيئًا.

عادت إيزل لمكتبها، وتبعتها زميلتها التي لخَّصت لها ما فاتها من الجدال، وسألتها عن رأيها فيما حدث.

"لا أعرف بالضبط". قالت إيزل وزمَّت شفتيها. "أعتقد أن المرأة لو طلبت بهدوء وأدب فإنه لا يوجد أي رجل يمكنه أن يرفض، حتى وإن كان يرفض الفكرة—".

"وأين هم هؤلاء الرجال الحقيقيون؟ لم يعُد في هذا العالم سوى أكياس خيش مملوءة بالتستوستيرون". قاطعتها زميلتها وأطلقت ضحكة عالية.

شاركتْها إيزل ضحكتها وأكملت حديثها. "من حيث المبدأ ليس من حقِّ أحدٍ احتكار استخدام المصعد. إذا لم ترغب المرأة أن يصعد معها رجلٌ فلتخرج وتنتظر حتى يصعد الرجال. هي طلبت حقًا إضافيًا خاصًا بها، ولذلك لا يمكنها أن تفرضه على الآخرين".

"يبدو أنك عدوَّة للفيمينيست والمساواة—".

"دعينا من هذا الكلام الفارغ عزيزتي". قاطعتها إيزل وعادت للموضوع الرئيسي. "لكن من جهة أخرى فالطريقة التي تعامل بها هشام لم تكن

موفَّقة. في النهاية التي أمامه امرأة. كان يجب أن يتعامل معها بالاحترام الواجب. ومن جهة أخرى لا أفهم ما مبرِّر حديثه عن أنه علماني. لم أفهم ما علاقة ذلك بالموضوع أصلًا".

جلست إيزل إلى مكتبها. أدخلت كلمة السرِّ للكمبيوتر واستدارت إلى زميلتها.

"إجمالًا، كل من يقحم الكلام عن العلمانية في أي حديث كيفما كان هو شخصٌ لا يعرف حقًا ما هي العلمانية. الأمر نفسه يحدث مع من يقولون عن أنفسهم أنهم ملحدون لا يؤمنون بالأديان وهم بجدالهم العقيم يجعلون من الإلحاد دينًا، مجرد دين آخر. أشكُّ أن الأستاذ هشامًا يعرف حقًا ما هي العلمانية".

سحبت زميلتها كرسيًا وجلست أمامها.

"أخبريني إذن يا مثقفة. ما هذه العلمانية؟".

ابتسمت إيزل واستدارت إلى شاشة الكمبيوتر.

"الحديث سيطول بنا. لديَّ عملٌ عليَّ إنجازه الآن. لنتحدث عن ذلك لاحقًا".

قامت زميلتها متأففة، لا شكَّ تفكِّر إذا كانت إيزل مشغولةً حقًا أم فقط تهرَّبت من الموضوع الذي ربما لا تعرف عنه شيئًا.

عادت إيزل تكمل صلاتها ولم تهتمَّ لهشام.

"من هذا الإله الذي تصلِّين له؟". خرجت الصرخة متحشرجة. لم تهتمَّ لها إيزل، ولا يبدو أن هشامًا يوجِّه حديثه إليها على أي حال. توجَّه نحو ركن الغرفة وأطبق بقبضتيه على المهد الفارغ الذي اشتراه استعدادًا لمجيء عدنان. بقي جامد النظرات حتى سمع حفيف ملابس إيزل وهي تركع. استدار إليها وعاد لحديثه الغاضب.

"ألا يُفترض أن الله رحيمٌ خيِّرٌ كليُّ المعرفة، خالق كل شيء، هو القوي الذي لا يوجد من يضاهيه؟ أليس هو العادل الذي لا يظلم أحدًا؟ أين هو العدل إذن في إسقاط جنين خارج الرحم قبل الأوان؟ أي إلهٍ هذا الذي يتلذَّذ بتعذيب طفل بريء، في حاضنة صناعية، يفتت وجهُه الملائكيُّ الصخرَ؟ ما كل هذا الشرِّ الذي يحمله هذا الإله في قلبه؟ هل تتصورين أن صلاتك ستنفع مع إلهٍ كهذا ساديٍّ مجنون...".

احتبس الصوت في حلق هشام وسقط على ركبتيه ينشج. وضع رأسه بين ركبتيه وأحاطهما بذراعيه وأسلم نفسه للبكاء.

قطعت إيزل صلاتها وحبَت إليه. جلست ملتصقةً به وحضنته.

"هوِّن عليك حبيبي، هوِّن عليك". قالت له وانخرطت معه في البكاء.

أحسَّت إيزل بسحر الراحة يغلِّفها كما هشام. قالت، ولا تفكر كثيرًا سيدي المفتش كيف أتذكر كل هذه التفاصيل. الصلاة كما البكاء فعلان يطهِّران. ربما تعرف إيزل ذلك، أو لا تعرفه. لكن الصلاة، الفعل ذاته؛ فعل الصلاة، حتى وإن كانت لإله غير موجود، تبعث الراحة في النفس وتزرع الاطمئنان في القلب. ربما يدرك هشام ذلك أو لا يدركه. لكن البكاء، الفعل ذاته؛ فعل البكاء، يطهِّر النفس ويريح البدن ويهدِّئ الأعصاب.

غير أن تصالحهما تلك الليلة سرعان ما انهار بعد أن انهارت أعضاء الطفل، وما عادا قادرين على المواصلة معًا، فافترقا والندم يسكن إيزل أن الله يعاقبها على التفريق بين هشام وزوجته وطفلتيه. لم يفترقا بالضبط. بشكلٍ ما أخرجت تلك الحادثة، على غير توقُّع، أسوأ ما في هشام، ودفعته لتركها معلَّقة، في أروقة المحكمة تسعى للطلاق، كأنه يعاقبها، هي تحديدًا، على شيء ما، على كل شيء.

دمعت عيناي ولم يكن لديَّ ما أقوله لها إلا كلماتٌ مستهلكةٌ تعوَّدنا على استخدامها للمواساة دون أي إيمان حقيقي بها. توقفتْ عن الحكي وانشغلنا بأحاديث قصيرة متفرقة لا معنى لها تتخلل فترات الصمت الطويلة ونحن نتأمل فيما يظهر لنا من البحر، ومن السماء الزرقاء، ومن

الطيور التي بدأت رحلة عودتها إلى أعشاشها. ثم سألتُها، دون أن أتوقع أنها ستجيب، وماذا عن انتحار ذلك العميد؟

"لم ينتحر". قالت إيزل ببساطة من يقول صباح الخير.

انتظرتُ طويلًا قبل أن تنتبه أنني أنتظر منها التفاصيل.

"مرَّت بضعة أشهر ولم أستطع تحمُّل المزيد من تلك الحياة التي طوَّقني بها العميد". قالت إيزل. "فهمتُ في وقت ما أنه يستغلُّني، كما الأخريات، يقدِّمنا هديةً لأصدقائه أحيانًا، في السهرات التي ينظِّم في فيلَّته، وأحيانًا أخرى يدفعنا للتجسُّس أو توريط رجال يحدِّدهم هو ثم يبتزُّهم بالتسجيلات". تنهَّدت إيزل. "لكن ذات يوم فكرتُ في احتمالٍ آخر. نعرف جميعنا حكاياتٍ عمَّن يُفترض أن يكون الحامي فيصير هو الحرامي. فكرتُ أنه ربما يستغلُّ سلطته ليتجسس لا على من يشكِّل خطرًا على الوطن، بل من يستفيد منه لبيع المعلومات المجمَّعة إلى جهة خارجية. لكني كنتُ غبيةً إذ ذهبتُ لمواجهته مباشرةً. تلقَّى الأمر ببساطة حين أخبرتُه بشكوكي. لم ينكر. بل كل ما قاله إنني أيضا مشتركةٌ معه ولديه ما يكفي من تسجيلات لإعدامي أو سجني مدى الحياة. هكذا قال بكل بساطة، وهو مستندٌ بجنبه على شرفة غرفة النوم في الطابق الثاني في فيلَّته. تلك البساطة التي يتحدث بها غلَّفت وعيي تمامًا وصار عقلي صفحةً بيضاء وفقدتُ السيطرة على جسدي الذي صار يتحرك من تلقاء

نفسه، أو بقوة خارجية لا علم لي بها. تقدمتُ نحوه. أمسكتُ شفتيه بقبلة طويلة، وفي الوقت الذي مرر فيه أصابعه إلى أسفل بطني ضغطت على صدره بكلتا يديَّ، بكل القوة الممكنة لديَّ وقفزتُ إلى الخلف قبل أن يتشبَّث بي".

توقَّفت إيزل تلهث وابتعلتُ أنا ريقي بصعوبة. عادت تنشغل بهاتفها كأنها لم تلقِ على مسامعي قبل لحظات بقنبلة اعترافها قتل ضابط في المخابرات. أطبقت عليَّ المفاجأة ولم أستطع التلفُّظ بكلمة. بقيتُ صامتةً لوقت طويل لأهضم حكايتها واعترافها.

"يا إلهي"، قالت إيزل وانتفضتْ واقفة. "غير ممكن". قالت وهي تتحرك جيئةً وذهابًا. تبعتها إلى الصالة. نظرتُ إليها عاجزةً عن فهمها. "يا إلهي. أتذكَّر الآن". قالت وهي تلهث وتعبُّ الهواء. "لا أعرف كيف نسيتُ ذلك". زمَّت شفتيها وجلست. "مستحيل". بدت لي كأنها جُنَّت. "ماذا هناك؟". سألتُها ولم تجب. "إيزل؟". رفعت رأسها وبدت نظرتها تائهة.

"هل أخبرتكِ من قبلُ أن هشامًا كان يكتب روايةً بدأها قبل أن ننشغل بصدمة الحمل؟".

حركتُ رأسي نافية. اعتدلتْ إيزل في جلستها. "لا أعرف كيف اختفى كل ذلك من ذاكرتي، وكيف عاد الآن فجأة". إيزل المسكينة لا تعرف شيئًا عن ألاعيب الذاكرة.

"اسمعي"، قالت بلهفة. "كان هشام يكتب رواية عن...". توقفت. عاد التيه يسكن في عينيها. "اسمعي"، أغمضت عينيها بعد أن جلست وأسندت ظهرها إلى الأريكة. "يمكنني تذكر بعض ما كتب من فصول الرواية، لكثرة ما قرأها عليَّ هشام".

ابتسمتُ وأنا أسترجع طيف عدنان. متى صار الجميع يكتبون الرواية؟ أستغرب، وأنا أسترجع الآن سيدي المفتش ما طلبتَ مني استرجاعه، أن ما حكَته إيزل مما يُفترض أنه رواية كان يكتبها زوجها هشام يشبه من حيث بصمته اللغوية، أسلوب الكتابة أقصد، يشبه تمامًا لغة عدنان. كأن إيزل كانت تقرأ عليَّ من رواية كتبها عدنان. طبعًا التفسير سهل. إنها مرة أخرى ألاعيب الذاكرة. ليس صعبًا على الذاكرة بقوَّتها السحرية غير المحدودة أن تحفظ ما سردَته عليَّ إيزل كما لو أن عدنان هو من فعل، أو كما لو أنني كاتبتُه.

بدأت إيزل تحكي ما كتب هشام:

سمَّاها أبوها احتفاءً بالمعنى المزدوج للاسم الجامع بين السعادة العربية والسيادة العبرية. سارةُ السرور التي ضحكت من بشارة الرسل لها بإسحاق أو ربما ضحكت استغرابًا من إحجام الرسل عن الأكل، وهي في قصتها العبرية أميرةٌ سيدةُ النساء اختار لها إلوهيم الاسم ذاك تكريمًا لها وتعويضًا عن صبرها وتحمُّلها مشاركة هاجر لها في زوجها أبراهام، حسبما قال للأب صديقُه المردوخي، اليهودي الأخير من أهل طنجة، الأصيل غير الوافد عليها من مدينة أخرى سعيًا لوضع اليد على دور وحوانيت تركها أهلُها، غير مدَّعٍ حقَّ الوصاية عليها حمايةً لها، الأصيل غير المتخلي عنها نحو أرض لا يعتبر نفسه معنيًا بالوعد بها. هكذا كان يحكي لها أبوها، وهي في حِجره، سرَّ اسمها بين ثنايا حكايات أُخر لم تكن تنام قبل أن يُثري بها مخيِّلتها التي ستكون مُعينها الوحيد خلال علقم سنوات لاحقة، وهي خلال سنواتها الخمسة والعشرين على هذه الأرض لم تنل من حظوظ اسمها شيئًا، لا السرور الذي منحه ربُّ العرب ولا الرفعة التي وعد بها ربُّ اليهود. بل سيصير اسمها عبئًا ملعونًا لا يحمل إلا المعنى الغريب الذي ذهب إليه بعض مفسري القرآن: ضحكت بمعنى حاضت. جسدها، كان لعنتها.

لعل المشهد الأقسى الذي تتذكَّر، بدايتُها أو لعله بالأحرى نهايتُها، أو هو ببساطة بداية سقوطها، دون إثم منها، من فردوس الكفاف إلى جحيم الجوع وعُري الوحشية البشرية التي ما عادت تحتاج للتخفي تحت أي نوع

من أثواب زيف الإنسانية، كان يوم هجم الجراد الجائع النهِم للسطو على رزق امرأتين ما عاد لهما كفيلٌ، والجثمان المهيب لأبيها لم يفقد حرارته بعد. كان الصباح الباكر والشمس، في التفاتة من مراعاة لن تكررها مطلقًا، احتجبت قليلًا لتعطي للنهار شيئًا من ظلال احترامًا للحزن المتفجِّر من مقلتي الفتاة سارة وأمِّها. كان الجيران في تلك السنوات لا يزالون أهل جيرة. النسوة مع المرأتين تواسين، والرجال تحركوا كلٌّ إلى حيث يجب تنفيذًا لمهام إدارية قميئة لترتيب الدفن وسعيًا إلى السوق شراءً للكفن وما يلزم من متطلبات الجنازة والمأتم واستعدادات قائمة للغسل تطهيرًا للميت قبل إعادته إلى التراب. خلال تلكم الساعات، والبنت كما أمها، تكفكفان صدمة الدمع، هجم الجراد النهم كأنه لم يأكل من قبل، الأختُ والأخوان، العمةُ والعمَّان، هجموا على حانوت البقالة، مصدر رزق الأب الذي غادر الحياة غير عالم أي جحيم ترك فيه امرأتيه، وأخذوا كل ما يؤخذ، ولولا التعذُّر صعوبةً لنزعوا الأرفف الخشبية كذلك. ثم عادوا، ثلاثتهم والأزواج الثلاث وجيش الأطفال، ودخلوا البيت فاتحين الأندلس أو كما أبناء عمومتهم غازين فلسطين، ليس ثمة اصطناعٌ للحزن في وجوههم، وليس ثمة، ولو محض محاولة، إخفاء اللهفة، لهفة الطمع، الناضحة بها أعينهم.

كانت سارة يومذاك غافلةً عنهم، عن نواياهم، ولن تعرف إلا بعد أيام أن التماعة الحزن في أعين الجيران لم تكن مرثيةً للأب الراحل، الذي، كما

يقولون، لم يكن ثمة أطيب منه، بل كان الحزن على المرأة وابنتها وهم قد رأوا في أعين الجراد الطمعَ الذي لن يترك وراءه إلا الهشيم.

بَّابا وأبَا، بتشديد الباء كما نطقت أول مرة وهي تكمل خطوتها الأولى وحدها دون مساعدة نحو صدره المتَّسِع حبورًا، وبفتحها خفيفةً كما علمها المردوخي ضيف أبيها الأوحد أن تناديه، هو العازب المستغني عن الزواج، كما ينادي أطفال اليهود آباءهم. ذاك النداء، بصيغتيه المتقاربتين الجامعتين بين رافدين لغويين استقلَّا كلٌّ في طريق من الأصل السامي نفسه، كان الوحيد الواجب منها تجاه أبيها حتى أنها، لدهشتها هي أولا، احتاجت أثناء بوحها هذا تركيزًا غير هيِّن، لتستخرج من ذاكرتها اسم الرجل الذي لم يكن إلا بَّابا وأبَا.

عبد السلام. كان اسمه. عبد السلام العمراني.

يتيمًا كان مذ فتح عينيه على الدنيا وقد جاهد عمُّه طيلة عام كامل ليقنع أم الوليد اليتيم أن تترك عبد السلام له، وقد سمَّته الأم كما كان اسمُ أبيه، فهي لديها طفلان آخران وهو العم البكر من بين إخوانه قد وصل الأربعين من عمره وثبت عنده أنه وزوجه، لن يستطيعا وهما معًا إلى الإنجاب سبيلًا، وهو إذ فشل أن ُيقنع زوجه بالرحيل عنه لتجرب حظها مع رجل آخر، غافلًا كان، لفرط محبته، أنها وإن لم تكن عاقًرا هي ذاتها لن

يتيسَّر لها تكرار الزواج ولقب مطلَّقة ملتصقٌ بها، بغضِّ النظر عن سبب الطلاق، اقترحت عليه، هي التي لا تريد عنه بديلًا، أن يتبنَّيا طفلًا فيكون الأجر لهما أجرين، فكان قرارهما تبّني طفل أخيه الذي لا يزال في بطن أمه. كان الأخ عبد السلام موافقًا، ولم تكن تلك بالعادة الغريبة تلك الأيام، غير أن أم الصبي وقد ترمَّلت لم تستطع أن تتخلى عن وليدها الذي منحته اسم الطيِّب الذي ساكنها خيرًا ومحبة، إلا بعد أن عانت من ثقل الإشراف على ثلاثة أطفال. لم يخفِ العم عن الطفل أنه عمُّه وليس أباه إنجابًا، ورغم كل الرعاية، كل الدلال، الذي مُنِحه الصبي إلا أنه كان يحسُّ بنفسه يتيمًا يفتقد الأب الحقيقي. كانت المحبة المتبادلة بين العم وابن أخيه في حدِّها الأقصى، إن كان للمحبة حدٌّ أقصى، مع ذلك، أو ربما بسبب ذلك، كان الطفل عبد السلام يشعر بنقص ما. لعلها القسوة العفوية التي لا بد أن تنفلت من الأب في لحظة ما، ويندم عليها من فوره، هي ما كانت تنقص. فالعم الذي جاء محمولًا على بساط اللهفة، من القرية ضواحي طنجة، لم يكن ليبخل على الصبي بأي شيء، وهو تجاهل كل تعب الرحلة وذهب رأسًا نحو حدائق المندوبية، ليزاحم بكتفه ويندفع وسط الجمهور مخترقًا الصفوف حتى يصل إلى أقرب ما يستطيع فرفع الصبي، وقد أكمل بالكاد عامه الأول، رفعه عاليًا على امتداد ذراعيه في مواجهة البطل الملك محمد الخامس وهو يخطب، ضدًا على إرادة سلطات الاستعمار الفرنسي، خطبة الأمل في الغد. الاستقلال قادم، قالها الملك بوضوح، والمستعمر سيرحل قريبًا. ما ضاع حقٌّ من ورائه طالبٌ وإن حق الأمة المغربية لا يضيع ولن

يضيع. إنه الأمل، ولا شيء غير الأمل، والعم/الأب متورِّد الوجه مغلَّفٌ بغلالة سماوية من الفرح، كان مسرورًا متفائلًا بالصبي الذي جاء من صلب أخيه. رغم أن رد المستعمر على زيارة الملك إلى طنجة جاء عنيفًا بنفي الملك وتعيين مكانَه من يسهل عليهم التحكم فيه، إلا أن النفي ذاك، وقد تجاوز كل الحدود، فتح الباب على مصراعيه أمام المقاومة المغربية بالسلاح كما بالسياسة مع انتفاضة شعبية عارمة سرعان ما نجحت في إعادة الملك إلى عرشه وإخراج المستعمر.

كان الأب يحكي لابنته سارة نُتفًا من حياته وكان المردوخي، هكذا يناديه الأب وسارة غير متأكدة من دقة الاسم، يعقِّب بما تتفتَّح عليه معرفته الموسوعية من خير. كان وهو يتحدث عن محمد الخامس تلمع عيناه، تتذكر سارة جيدًا، ويرفع بصره نحو السماء وهم جلوسٌ في مكانهم الظليل على السطح. لم يكن يضيع فرصة لإبداء محبته، التي ورثها عن عشيرته، للملك محمد الخامس رغم أنه لم يعاصر حكمه إلا قليلًا.

تلتمع عينا المردوخي وهو يحكي ما يخلب الألباب ويحرِّك القلوب من أيام انتفاضة الشعب ردًا على نفي الملك. يتمنى لو كان أكبر من صبيٍّ حينذاك ليخرج مع من خرج، ليركل الفرنسيين إلى البحر. يتألم الآن. خرج الفرنسيون من الباب وعادوا من النافذة. الوطنيون باعوا الوطن وهم يتهافتون كلٌّ إلى نيل نصيبه من خيرات الوطن. لم يكن ثمة أي استقلال. ما زلنا مستعمَرين. الصغيرة سارة تفتح فاها دهشةً من الحكايات. تسأله

كيف يعرف كل ذلك وهو لم يعشه. من يقرأ يعش أكثر من حياة. يقول لها. تقفز ذات يوم إلى موضوع كانت تسمع عنه همسات في المدرسة، موضوع تحسُّ أنه محرَّمٌ عند أبيها أن يخوض فيه. لماذا لم تهاجر مع من هاجر؟ يغضب أبوها ويزجرها. يبتسم لها المردوخي ويمسِّد شعرها. لا بأس عبد السلام، دعها. لا تقتل السؤال عند الأطفال. دعها تحتفي بالفضول. دعها لا تكبر قرينة الخنوع. يبتسم لها. أنا مغربي يا سارَتي. أين تراني أهاجر؟ ليرحم الله أولئك الذين تركوا بلدهم وهاجروا إلى حيث لا يجب أن يذهبوا. فلسطين للفلسطينيين هناك. مسلمين كانوا أو مسيحيين أو يهودًا. والمغرب للمغاربة يا بنيتي. مسلمين كانوا أو يهودًا أو غير ذلك. هنا وُلدتُ، وتحت هذا التراب أريد أن أُدفَن. تغيم عيناه. يحرك رأسَه. يبتسم لها مجددًا. يغيِّر الموضوع. يسألها: هل حكيتُ لك من قبلُ حكاية الفارس الذي ركب النمر؟ تتسع عيناها وتنتصب أذناها مترقبةً تفاصيل الحكاية.

ستفتقد سارة صديق أبيها الذي لو كان عاش بعد أبيها ولو سنواتٍ قليلةً لكان مستقبلها غير المستقبل الذي صارت إليه. سيتوفى المردوخي قبل عامين من وفاة أبيها المنفطِر قلبُه حزنًا على صديق عمره، وسيبكي الأب، للمرة الوحيدة حسبما رأت سارة، يوم سيتعذَّر عليه دخول المقبرة اليهودية للترحُّم على الفقيد الذي كثيرًا ما رافقه ومعهما سارة في جولات داخل المقبرة حيث ستكتشف الطفلةُ لأول مرة موسوعية المردوخي وذاكرته الأرشيفية العظيمة وهو يستذكر تواريخ وأنساب سكان القبور

أمامهم، حتى ذوات الشواهد الممسوحة قِدمًا. ذانك العامان الفاصلان بين وفاة الصديقين لن يكونا، في حياة سارة، كما كانت السنوات التي سبقت. صار الحزن مقيمًا في قسمات وجه أبيها تراه نهاية كل أسبوع خلال زيارتها طنجة، وتلوم هي نفسها أنها لم تكن قريبة منه تخفِّف عنه هي المقيمة آنذاك في مارتيل بعيدةً عنه تدرُس عاميها الأوَّلين، والأخيرين، في كلية الآداب متخصصةً في اللغة العربية وآدابها دونما تركيز كبير.

ذانك العامان حملا من التغييرات الكثير، المأساوي خاصة، سواء ما تعلَّق بالعائلة الصغيرة أو بالوطن نفسه، إن صحَّ أن نتحدث عن وطنٍ وسارة أبعدُ من أن تمنح هذه الأرض غير المباركة صفة الوطن. جاءت تفجيرات 16 ماي الإرهابية لتهزَّ الدار البيضاء، الفندق والمعبد اليهودي، ولترمي إلى الأبد مقولة الاستثناء المغربي، الأمان الزائف من الإرهاب الديني، ولو أن الحقيقة، رغم تعدد وجوهها، كانت أمام من يبحث عنها غير مستعصية عن الإمساك، تقول سارة بنبرة من اكتوى بحقيقة القرب من السلطة. تلك الأحداث المأسوفة كانت نتيجةً طبيعيةً لسنوات من الفقر والقمع السلطوي، وسنوات من ممارسة السلطة هوايتَها المفضلة، أن ترفع كفَّها إلى السماء وتدعو ربها أن يضرب الظالمين بالظالمين، فكانت حينًا تزكِّي الانفتاح يساريَّ الهوى، وتارةً تدفع التعصُّب الديني، فجعلت باحاتِ الجامعات ساحات صراعات لا تنتهي، دمويةٍ أحيانًا،

وخلال ذلك، وبعده، كانت الحسابات السياسية الخارجية والتحالفات الأمنية لصدِّ المدِّ الشيوعي فتحت الباب أمام الفكر الوهابي أن يستوطن هذه الأرض، فكانت النتيجة الفشل الأمني الذريع، والاجتماعي من قبل ومن بعد، واستيقظ من كانوا يحسبون أنفسهم ماسكين كل خيوط اللعبة، صبيحة يوم تلكُم التفجيرات، على فجيعة أنهم لا يعرفون شيئًا.

كانت سارة تتحدث عن تلك الفجيعة بأحاسيس غير التي تتحدث بها عن مواضيع أخرى من حياتها، وسأعرف بعد تقدُّم بوحها إلى سنوات تالية المنعطف الذي قادها نحو تلك الأفكار، أو ذلك الوعي، إن شئنا الدقة. وجودها الإجباري طيلة عام كامل وسط شبكة العميد شكري، جعلها تسمع الكثير مما لم تهتمَّ يومًا بسماعه، وهي أفكارٌ رغم تضاربها، تنافرها الصارخ، إلا أنها في عمقها كانت تمظهرًا لجوهرٍ وحيد: ثمة فسادٌ عفنٌ يستوطن هذه الأرض، والعميد شكري واحدٌ من أوجه ذلك الفساد.

أدهشتني حكايتها عن تجمُّعٍ أمنيٍّ حمل اسم نادي السفاري، واحتجت بحثًا متعمقًا في وثائق استخباراتية أمريكية للتحقق من هول ما قالت. ~~(لاحظ سيدي المفتش أن سارد رواية هشام هو الذي يتحدث هنا.)~~

خرج العالم من الحرب العالمية الثانية بقطبية متنافرة بين مدٍّ شيوعيٍّ يغزو العالم يهدِّد أفكارًا بشريةً طبيعيةً مثل المِلكية ومدٍّ رأسماليٍّ متوحِّشٍ بقدر ما يفتح الباب للفرد ليمارس حرية مطلقة فإنه يقولبه بما يلزم ليكون المستهلك المثالي للأفكار والمنتجات الرأسمالية. عشية الأول من

سبتمبر سنة 1976 التقت عناصر أمنية استخباراتية من المغرب ومصر والسعودية وإيران ما قبل الثورة الإسلامية لتكوين نادٍ أمنيٍّ ترعاه فرنسا بالتكنولوجيا وأمريكا مع إسرائيل بخبراتهما الأمنية، لصدِّ المدِّ الشيوعي في إفريقيا، والمشرف على هذا التجمع الاستخباراتي كان تاجر سلاح مقرَّبًا من الاستخبارات السعودية. قام التحالف بعملية تدخُّلٍ عسكريٍّ في زائير دعمًا للحكومة المحلية لمواجهة غزو من أنغولا، كما وفَّر التحالف السلاح للصومال خلال صراعها مع أثيوبيا خلال العامين 77-1978، مع العديد من المبادرات المضادة للشيوعية في إفريقيا بغرض وقف المدِّ السوفياتي. كما أن هذا التحالف الاستخباراتي هو الذي بدأ بالمفاوضات التي أثمرت اتفاقية السلام بين إسرائيل ومصر. كما كان من نتيجة هذا التحالف تكوين أكبر شبكة بنكية على مستوى العالم لغسيل الأموال، لاستخدامها في تمويل العمليات السرية للتحالف. توقَّف عمل النادي بعد انكشاف أمره بسقوط نظام الشاه بسبب قيام الثورة الإسلامية في إيران، غير أن التعاون بين استخبارات دول التحالف، إلا إيران، بقيت كما هي بشكل ثنائي مع كل من إسرائيل وأمريكا.

توقفت إيزل تلهث. "أعتقد"، قالت، "أعتقد أن هشامًا تعرَّف فعلًا على سارة تلك. هي شخص حقيقي. طريقة كتابته تكشف ذلك، ونوعية الأبحاث التي كان يجريها حول نادي السفاري. هو أنكر أن تكون سارة تلك

شخصًا حقيقيًا، لكن ما واجهتُه أنا شخصيًا لاحقًا، مع العميد ش، أكَّد لي أن هشامًا انطلق من قصة واقعية".

وضعت إيزل يديها بين فخذها. أسندت ذقنها على صدرها. تابعت بصوت منخفض.

"جاء الحمل سريعًا وأوقف هوس هشام المحمومَ بروايته. لم يكتب الكثير. أتذكر أنه حكى لي عن مخططه العام للرواية. سارة تلك ستضطرُّ بعد وفاة أبيها واستيلاء أعمامها على المنزل، وفق أحكام الإرث في الشريعة الإسلامية كما قال الأعمام بكل تعال، إلى العمل في مهن مختلفة، قبل أن تتعرف إلى شابٍّ في صالون الحلاقة الذي تعمل فيه، ستعرف لاحقًا أنه ضابطٌ في المخابرات برتبة عميد". تنهَّدت إيزل قبل أن تتابع. "ستنمو بينهما مشاعر ما، لنسمِّها مجازًا حبًا، وسيربط بينهما عقد الزواج. غير أن حياتها ستغدو كابوسًا أشنع مما كانت، أمام ضعفه الجنسي وكيف سيُسقط عليها كل ذلك الضعف ليحمِّلها وحدها مسؤولية عدم التوافق بين جسديهما. مع ذلك سيتمُّ الحمل ذات مرة، ولو أن ذلك لن يغيِّر شيئًا من سوء معاملته لها. إلى أن جاء يومٌ سيقترب منها متوددًا، مقدِّمًا هديةً ثمينةً من الذهب. سيخبرها أن الوطن بحاجة إليها. ثمة جاسوس إسباني تحتاج المخابرات للدخول إلى بيته، دون أن يكشف ذلك، وقد تعذَّر عليهم الأمر إلى أن اكتشفوا هوسه بالنساء الحوامل. كادت سارة أن تصفع زوجها وهو يلمِّح لها بطلبه، غير أنه أمسك كفَّها وكاد يكسر

يدها. سيقول لها أنه يعرف أنها لا تطيقه وأنها تريد الطلاق. يوافق على تطليقها ومنحها حريتها التي تريد بعد أن تنجز للمخابرات المهمة المطلوبة. توافق سارة، وتذهب إلى شقة الإسباني، بصفتها مدلِّكةً تحمل اسم خالدة".

تنهَّدت إيزل مرة أخرى، وبدت المعاناة في قسمات وجهها.

"كانت المهمة سهلةً كما أشار زوجها. المطلوب منها أن تغافل الإسباني وتزرع جهاز تنصُّت في غرفة نومه وكاميرا دقيقة أمام باب الشقة من الداخل. أصرَّ الزوج أن المهمة سهلةٌ جدًا، لكن سارة فكرت أن الأمر مستحيل التنفيذ أمام انعدام أي خبرة أو تدريبات تسمح لها بتنفيذ المطلوب. وافقت على المهمة وهي تعرف ماذا سيكون عليها أن تقدِّم للإسباني. لكنها لم تتحمَّل لعاب الإسباني وهو يلعق بطنها المنتفخة. لم تتحمَّل التقزز وهو يدخل أصابعه بين ساقيها. دفعته عنها وكان الخطأ الذي لا يُغتفر. قام الإسباني ثورًا هائجًا وصار يصفعها ويركلها أينما اتفق. هربت منه فتعثَّرت. جرَّها إليه فركلته. قامت وخرجت إلى الشرفة. تبعها الإسباني وأراد جرَّها، لكنها بشكل ما تمكَّنت من دفعه فاصطدم بحاجز الشرفة، ورأت الدهشة وعدم التصديق في عينيه قبل أن يهوي نحو الشارع. تجمَّدت سارة في مكانها واقفةً وغمرها الشحوب وأحسَّت به كتلةً مجسَّمةً كأنها قطعةٌ جليديةٌ غطَّت كل جسمها. ستحسُّ بدقَّات قلبها تتسارع كأنه يريد مغادرة القفص الصدري. ستخِزها دفقةٌ من الألم في

بطنها، وقبل أن تهوي فاقدة الوعي في الشرفة سترى الدماء تغطي فخذيها وساقيها".

تكوَّرت إيزل فوق الأريكة وابتعلتُ أنا ريقي بصعوبة. بقيتُ صامتةً لوقت طويل لأهضم حكايتها واعترافها ورواية زوجها هشام.

مرَّ وقتٌ لا أعرف كم. بدأتْ ستارة الظلام تمتصُّ ضوء النهار.

سألتني إيزل إذا كان يمكنها قضاء الليلة معي ثم تغادر في الصباح. أومأتُ لها. ليس لديَّ موعدٌ محدَّدٌ سلفًا لهذه الليلة، ولا رغبة لديَّ بأخذ زبونٍ جديد. عادةً حين لا تكون لديَّ مواعيد مسبقة من عملاء قدامى ولا من موقع الإنترنت أتجوَّل عبر أروقة صالات القمار التابعة لفندق موفينبيك وأقترب من الرجال الذين يسعفهم الحظ بالربح تلك الليلة. حين يضبطني القوَّاد الذي يدير شبكته من هناك يكون عليَّ التضحية بمبلغ غير هيِّن، وإلا سيكون مصيري شنيعًا. إنه قانون السوق. عمومًا صار هذا نادرًا بعد أن أنشأتُ لي موقعا على الإنترنت.

لا أشعر بأي رغبة بالعمل هذا المساء فقررتُ البقاء مع إيزل. طبخنا معًا عشاءً خفيفًا. شاهدنا وصلات إعلانية يتخلَّلها بثُّ فيلم مصري حديث. شعرتُ بالأسف على السينما المصرية التي تهاوت كثيرًا خلال السنوات الأخيرة. حاولتُ قدر الإمكان التحكُّم في فضولي وعدم سؤالها مجددًا عن حكايتها. اكتفيتُ بما حكَته لي اليوم. تشاغلنا ببضعة أحاديث متنوعة ثم

بدأتْ إيزل تكافح لمنع نفسها من التثاؤب. تظاهرتُ أنا أيضًا بالتثاؤب، وضحكنا معًا.

"تصبحين على خير". قلتُ وقالت، ثم استلقت إيزل على الأريكة في الصالة ودخلت إلى غرفتي.

لستُ معتادةً على النوم مبكرًا، لكني غفوتُ بسرعة وبسهولة، إلى أن اخترق أنفي ذلك الأريجُ مرة أخرى. أريج عطر إيزل. اعتقدتُ بدايةً أنه حلم الصباح عاد ليكرِّر نفسه، لكني فتحتُ عيني ورأيتُ فوقي مباشرة، إيزل تنحني عليَّ وتهمس في أذني: "هل يمكنني النوم بجانبك؟ الفراغ في الصالة مخيف". فكرتُ أن ما تقوله محض هراء. إنها ليست طفلة صغيرة لتخاف الظلام. لكن عينيها كانتا تلمعان بالصدق. "تفضلي". قلتُ بأنفاس مبهورة وأنا مخطوفة ببياض جسدها الذي ينعكس عليه ضوء المصباح من هاتفها. كانت مكتفيةً بملابسها التحتية فقط؛ قطعتين لا تقلَّان إغراءً عما ألبسه لعملائي. ثم انتبهتُ إلى أنها فعلًا تلبس ملابسي. تذكرتُ أنها بعد الاستحمام سألتني خجلة، كأنها طفلةٌ عذراء، عن تبَّان نظيف وحمَّالة صدر. أشرتُ لها إلى دولابي وتركتُ لها حرية الاختيار. لم أنتبه إلى أنها تجاهلت كل قطع ملابسي العادية واختارت الأكثر إغراءً من بينها.

استدارت إيزل إلى الجهة الأخرى من السرير، واندسَّت تحت الغطاء واقتربت مني حتى كادت تلتصق بي. ارتبكتُ وأحسستُ بقطرات من العرق تتسلَّل من منبت الشَّعر عند جبهتي.

استدرتُ لأبتعد عنها قليلًا. سددتُ أنفي بأصابعي لأمنع أريج عطرها، وحاولتُ شغل عقلي بأي موضوع آخر. لم أجد أفضل من استدعاء عدنان ليشغلني عن التفكير بجسد إيزل. لكن عدنان صار عصيًا على الاستجابة. ما عدتُ قادرةً على استحضاره بسهولة، وبمرور الوقت تزداد الصعوبة وتكاد ذكراه تصير ضبابًا. كأنه لم يكن هنا يومًا. لكن مخطوط روايته هنا، وأنا ما زلتُ أحفظها.

تلك الليلة، سيدي المفتش، تجاهلتُ إيزل الساكنة بجانبي وعدتُ أستظهر رواية عدنان كلمةً كلمة، بالمتعة نفسها التي شعرتُها وأنا أقرأ المخطوط أول مرة، كما استذكرتُ تفاصيل لقائي الأول بعدنان، واللقاءُ نفسه يَصلح روايةً مستقلةً بذاتها.

لا تستغرب، سيدي المفتش، وقد قلتُ هذا من قبل، كيف أني أتذكر كل هذه التفاصيل، بل أنا نفسي مستغربة، وقد كنتُ دوما أتأفَّف من الروايات التي أجد فيها الشخصيات تتذكر وتعيد حكاية تفاصيل قديمة مع حوارات مفصلة. كيف تراهم يتذكرون كل ذلك؟ لكني الآن أعرف أنني إذ أتذكر كل هذا، فإنني حقًا لا أتذكر شيئًا بل أخلق كل شيء من جديد.

أتصور، وأرجو ألا تعجبك اللعبة وتورطني فيها، لو طلبتَ مني بعد بضعة أيام أن أعود لكتابة اعترافي هذا سأكتب حكايةً مختلفةً عن هذه، لا أعرف بأي قدرٍ ستكون الاختلافات، لكنها ستكون حتمًا.

كان عدنان يمشي في ليل طنجة شاردًا مكتئبًا دون هدف محدد حين حملتْ إليه الريح أنينًا مكتومًا فرفع رأسه. رأى أمامه اثنين من قطَّاع الطرق، أحدهما يقلِّب في حقيبة يد نسائية والآخر يضغط نفسه على امرأة ملتصقة بالجدار. أول ما فكر فيه عدنان، حسبما أخبرني لاحقًا بالقليل الذي بدأ يتذكره/يختلقه، هو سرُّ بقاء هذه المرأة خارج بيتها حتى هذه الساعة المتأخرة وحيدةً في شوارع مدينةٍ ما عادت آمنةً يبسط عليها قطَّاع الطرق سيطرتهم ليلًا، وحتى نهارًا. مدينةٍ ما عادت المدينةَ التي عرفها طفلًا. المدينةُ الهادئةُ النقيةُ صارت مصنعًا ضخمًا ينفث السموم نحو السماء كما نحو الأرض المزدحمة طرقُها والمسوَّرة أحياؤها بالكتل الإسمنتية الصاعدة من قلب الأرض. لغة أهل المدينة ما عادت هي اللغة. الهواء النقي ما عاد هو الهواء. الشاطئ ذو الرمال الذهبية ما عاد شاطئًا. ما عادت طنجةُ طنجةَ. مدينةً من زجاج صارت وطبَع البرودُ أهلَها والجمودُ. فقدانُه ذاكرتَه بدا كأنه هِبةٌ جعلَتْه حسَّاسًا لإدراك الفرق بين طنجة التي يسكنها الآن وطنجة التي تسكن ماضيه البعيد.

التمع ضوء مصباح الشارع على خنجر طويل في يد أحدهما وتسمَّر عدنان في مكانه. انتبه إليه حامل الخنجر والتفت يلوِّح بحركات خرقاء متوعدًا أي رجل تصيبه لوثة الشجاعة أن يتقدم إلى حتفه. كانت المرأة صامتةً إلا من أنين خافت لم يميِّز منه عدنان إن كانت تتأوَّه ألمًا أم استمتاعًا. كان رفيقُ حاملِ الخنجر يضغط المرأة إلى الجدار وسرواله ساقطٌ عند قدميه وتنورة المرأة مرفوعةٌ إلى بطنها. تسمَّرت عينا عدنان على بياض فخذ المرأة الواضح رغم ضعف الإضاءة التي تلتهمها الظلال. انفلتت صرخة ألم من فم المرأة بعد حركة عنيفة من الذي يضغطها إلى الجدار. أبعد عدنان نظره عن سحر البياض، مندهشًا من نفسه ومن الصلابة بين فخذيه. رفع عدنان نظره إلى الأعلى ووجد المرأة تنظر إليه في وقفته المتجمِّدة. أحسَّ بحرارة الخجل تلهب وجهه. رأى البريق المتلألئ في العينين الصامتتين. كان الاستجداء واضحًا فيهما غير أن حامل الخنجر تململ من جمود عدنان فلوَّح بخنجره من جديدٍ وتقدَّم في اتجاهه. عضَّ عدنان شفتيه. انعطف إلى شارعٍ جانبيٍّ على يمينه وأسرع الخطى. تردد أنين المرأة الخافت في رأسه وأسرع أكثر. إنها هادئة. كان يفكر. مستسلمة. من يراها يحسبها عاهرةً تبيع نفسها في الشارع لرجلين. من يسمع أنينها الخافت يحسبها تتأوَّه متعة. لكن عدنان يتذكر. لقد قرأ من قبلُ أنه في حالات معينة يمكن أن تشلَّ صدمة الاعتداء المرأة فتبدو مستسلمة. بل يمكن أن يحسبها المعتدي راغبةً فيه موافقةً له. خاصة إذا كان المعتدي مقرَّبًا من المرأة وذا سلطةٍ عليها. مديرها مثلًا أو أستاذها. لكن هذين

قاطعا طريق فلماذا لا تصرخ المرأة؟ نفض عدنان الفكرة عن رأسه. هل صرخ الرجال من قبل داخل الخزَّان المشتعل بنار صحراء الكويت؟ ما كان ليسمعها أحد، لو صرخت، في هذا الشارع الفارغ من العابرين في هذه الساعة المتأخرة من الليل. انعطف عدنان مجددًا إلى زقاق جانبي، هاربًا من صدى أنين المرأة القادم مع الرياح. حتى لو كانت صرختْ وحتى لو كان الوقت نهارًا وكان الشارع مكتظًا ما كان أحدٌ ليتجرأ على الوقوف في وجه حامل الخنجر. لسان حال الجميع سيكون نفسي نفسي، نفسي، ولا أحد إلا نفسي. يتأفف عدنان. أو، يفكر عقل عدنان الذي لا يهدأ أبدًا، لعلها ستكون حالةً أخرى من مأزق الاعتماد الجماعي على أن يبادر شخصٌ آخر. كل واحد يتوقع أن آخر سيبادر، فينتهي الأمر ألا يبادر أي أحد.

لكنه لم يتحمل، وعاد من فوره راكضًا، مسكونًا بالجنون ربما أو التهور. اندهش حامل الخنجر من جرأة عدنان الراكض نحوه فترك المُدية تسقط من يديه وفرَّ مسرعًا هاربًا من الشيطان الذي رآه يطلُّ من عيني عدنان.

ارتبك الرجل الذي كان يضغط المرأة على الجدار، (نعم كنتُ أنا المرأة وكنتُ قد غادرتُ شقة زبون لم يحصل على مبتغاه فطردني تلك الساعة،) أراد أن يهرب هو الآخر لكنه تعثَّر في سرواله الساقط وسقط أرضًا. قفز عليه عدنان وصار يركله أينما وصلت قدمه. بدا أن الرجل سيموت فاستجمعتُ نفسي وأمسكتُ عدنان. ~~حسنًا، سأسجِّل الآن، لا أعرف اسمه ولا هو يعرف، أنا سمَّيتُه عدنان.~~ احتجتُ أكثر من محاولة قبل أن

يستكين. همستُ في أذنه أشكره. التفت إليَّ بنظرات غائمة، أو غائبة. لم يقل شيئًا. وضع كفَّيه في جيبيْ سُترته وتخطَّى الرجل الساقط أرضًا وأكمل طريقه. ثم حدث كل شيء بسرعة. في غفلة منا، قام ذلك الملعون من الأرض وأخرج مديةً من جيبه وغرسها أولًا في كبد عدنان. صرختُ. ثم أخرجها وصار يطعن عدنان المتجمِّد في وقفته غير مصدقٍ ما يحدث له، في صدره وبطنه. صرختُ وصرختُ وصرختُ وبدأ الناس يتجمَّعون على شرفات شققهم أو خارج مبانيهم. هرب الملعون وهو يقفز محاولًا تعديل سرواله. سقطتُ أرضًا على صدر عدنان الساقط أرضًا. بكيتُ وصرختُ ومرَّت سنواتٌ وسنواتٌ قبل أن تأتي سيارة الإسعاف ومرَّت سنواتٌ وسنواتٌ وأنا جالسةٌ عند فراشه في المستشفى أنتظر أن يفيق من غيبوبته بعد سلسلة العمليات الجراحية التي خضع لها. حتى جاء يومٌ واستيقظتُ من غفوتي على صوت أنينه. كان يحاول فتح عينيه. قمتُ أجري أنادي الممرضة التي طلبتْ بدورها الطبيب، ثم ما حدث بعد ذلك لا يختلف عما تعوَّدنا عليه في الروايات وفي السينما. يفتح عينيه لا يعرف أين هو ولا من هو. فقدانٌ تامٌّ للذاكرة. ليست الذاكرة المعرفية، بل الذاكرة الشخصية. يتذكر كل المعارف والمهارات التي اكتسب، لكن لا شيء من خبراته الذاتية المتعلقة بمشاعره إلا شذراتٌ من طفولته. لا يعرف اسمه. لا يتذكر الحادثة. صار كأنه جهاز كمبيوتر بذكاء صناعي متطوِّر لا يملك أن يخرج عما لُقِّن إلا في حدود العلاقات المنطقية من استنتاجٍ وتحليل. لا شيء من الذكريات الشخصية. لا شيء من المشاعر.

ألم أقل لك سيدي المفتش كم هي غامضةٌ أمور الذاكرة؟

أخذتُه معي إلى البيت بعد أن سمح له الطبيب بالمغادرة. ماذا كان يُفترض أن أفعل وهو أصيب بما أصيب به بسببي؟ اقترح عليَّ الطبيب اسم متخصصٍ في الطبِّ النفسي لديه خبرةٌ معقولةٌ بأمور الذاكرة، نصحه، أو طلب منه، ممارسة الكتابة، كنوع من علاج تجريبي يمكن أن يساعده على تذكُّر ما اختفى من ذاكرته. تلك صارت مهمتي، رعاية عدنان، خلال سعيه الحثيث للتذكر من خلال الكتابة. لكنه لم يتذكر، بل كتب رواية. روايةً غريبةً تجمع أزمنةً متعددةً وحكاياتٍ من عالم الجاسوسية والتاريخ ومشاهد من حكايتي الشخصية التي أخبرتُه بها، وقصة رومانسية...

ثم اختفى عدنان. عدتُ ذات يوم ولم أجده. ترك مخطوط روايته كاملةً على المكتب، مع كلمةٍ واحدة: شكرًا. ولم أره بعد ذلك. هل كان جوابي على سؤاله هو السبب. لا أعتقد. لا يمكنني الجزم. لكن آخر محادثة بيننا كانت حول ذلك الموضوع.

"لا أفهم لماذا، رغم أنك تشتغلين أستاذةً في التعليم الثانوي، ولديكِ دخلٌ ماديٌّ جيد، التجأتِ لممارسة..."، ولم يكمل التلفُّظ بسؤاله.

"ممارسة البغاء؟ ليس عليك أن تتحرَّج من الكلمة".

أغلقتُ عيني. تنهَّدتُ بصوت مرتفع، ثم بدأتُ أحكي لعدنان.

"لم أخبرك من قبلُ أنني كنتُ، أو لا أزال، متزوجة. قبل عام تزوجتُ، وبعد زواجي بأقل من شهر طلبتُ الطلاق، مرت الآن أشهرٌ أليمةٌ ولا يزال الطلاق معلَّقًا. كان يكبرني بعشرين عامًا. لا أعرف كيف اقتنعتُ به زوجًا. تدخلات عائلية من هنا وهناك، ووجدتُ نفسي في الأخير متزوجةً برجل ثري. يمكنك أن تخمِّن أنه ثريٌّ عربيٌّ لديه ثلاث نساء في عصمته، وكنتُ الرابعة. لم أستطع الرفض وأنا أرى السعادة الطافحة من عيني أمي، بعد أن قدَّم لها ولأبي هديةً مصاريفَ الحج الذي طالما تمنَّياه. تصادفتْ ليلةُ الدخلة مع قدومٍ مبكِّرٍ للدورة الشهرية. أخبرتُه فلم يبال. رجوتُه ولم يبال. كان مصرًا على الدخلة بعناد طفولي وجهل غريب. وكانت فوضى عارمة. تعذَّر عليه الافتضاض. ثم بعد أكثر من محاولة، التجأ للحبة الزرقاء وعاد من جديد. لكني تعبتُ من محاولاته فانسحبتُ من تحته. جرَّني من شعري بعنف ورماني أرضًا وسقط فوقي. افترسني الوحش. تكررت الحكاية، وطيلة الأسبوع عانيتُ من تصرفاته الشاذة. لم أتحمل أكثر فغادرتُ إلى بيت عائلتي. عائلتي التي نظرتْ إليَّ شزرًا وأعادت رميي إليه رغمًا عني. هربتُ منه مجددًا، وما زلتُ معلقةً في عصمته بعد أشهر من العذاب في أروقة المحاكم. غيابه المتكرر يؤخِّر القضية والإجراءاتُ بطيئة. لماذا يجب أن نضيع الوقت في مسطرة الصلح. لكنه القانون. ثم..."

لم أستطع المواصلة. توقفتُ دقائق ولم يحاول عدنان حثِّي.

"ثم اكتشف الوحش أنني حامل، وجُنَّ جنونه".

اعتدل عدنان في مجلسه. مستغربًا. "حامل؟".

الألم نفسه عاد يعصرني، الآن كما ذلك اليوم.

"فقدتُ الجنين. إجهاضٌ في الشهر السابع". وتوقفتُ. لم أرد التطرق آنذاك للتفاصيل المؤلمة، كما لن أفعل الآن سيدي المفتش فموضوع جنيني عدنان غير ذي صلة بقضيتك.

"ذات مرة صادفتُ العميد شهابًا في المحكمة. تقرَّب مني وعرض عليَّ تسهيل إجراءات الطلاق. لا أعرف ماذا فعل وهل وفى بوعده. انشغلنا في تدريبات عملية السفارة الإسبانية ومرَّ الوقت سريعًا...".

لم أستطع المتابعة واستسلمتُ للبكاء. شعرتُ بعدنان يقترب مني. يحضنني. يواسيني بكلمات دافئة حتى نعستُ. ثم رأيتُه، بين اليقظة والنوم، يمدِّدني على الأريكة ويغطّيني، ويغلق باب الشقة وراءه.

يا لمخيلة عدنان الجامحة:

رصاصةٌ واحدةٌ تكفي لتقتل إذا أسبغ القاتل النية وأحكم إطلاقها، غير أن الإعدام انتقامًا يتطلب أكثر من رصاصة واحدة. تحُول المشاعر المتدفقة مع رغبة الانتقام المتحكِّم في المشاعر دون إحكام التصويب ولا يمكن أن تفي رصاصةٌ واحدةٌ بالغرض. الرغبةُ بالإذلال المصاحبةُ للانتقام تتطلب تشويه الجسد وتحويلَه مصفاةً مشوَّهةَ الثقوب. رصاصةٌ واحدةٌ لن تكفي لتشفي الغليل، ولا خمسًا، ولا عشرًا. بل إحدى عشرة رصاصة. إحدى عشرة رصاصة اخترقت سكون الليل في ليلهامر النرويجية في تلك الليلة الماطرة ليوم السبت الحادي والعشرين من يوليو 1973، وحوَّلت الجسد المستهدف إلى مصفاة تدفَّق منها الدم شلَّالًا. بجانب الرجل الذي هوى أرضًا وسط بركة دمائه كانت زوجته الحامل في شهرها السابع، وكانا عائدين معًا من حفلة سينما شاهدا فيها فيلمين متتابعين. أصرَّ الزوج على مشاهدة الفيلم الإسرائيلي "الصقور تهاجم فجرًا"، وأرادت الزوجة أن تشاهد فيلم "دخول التنين" الذي ختم به بروس لي مسيرته الفنية وعرضته قاعة السينما في حفل خاص كتكريم لبروس لي الذي أُعلنت

وفاتُه في اليوم السابق. شحبت الزوجة تمامًا وابيضَّ وجهها وانسحبتْ منه الدماء كأنها لم تكن هناك يومًا. انتفض قلبها وصار يدقُّ بجنون كأنه يريد الفرار من قفصها الصدري. كل ما كانت تفكر فيه أنها يجب ألا ترتعب. يجب أن تهدأ. مطلِقا النار هربا ولم تكن لهما نية التصويب عليها. يجب أن تهدأ. الوعاء يجب أن يبقى سليمًا. لا يجب أن يهتزَّ. الجنين يجب أن يعيش. لن تتحمل فقده. أغمضت عينيها عن زوجها المضرَّج في دمائه. شبَّكت أصابع يديها تحت بطنها المكوَّرة. تنفَّست بعمق. تنفَّست ببطء. تخيلت نفسها تدخل مع كل شهقة وتخرج مع كل زفرة كأنها ريشةٌ تحملها ريحٌ خفيفة. تخيلت نفسها تسري عبر دمائها وتصل إلى رحمها. تمسِّد رأس ابنتها وتدور معها، تسبَح معها، في ماء المشيمة، بسلام وهدوء. ليلتئذ، لم تنقذ توريل لارسن جنينها وحسب، بل الجنينُ نفسه، الابنة التي اختار لها أبوها من قبل اسم مليكة أنقذت هي الأخرى أمها.

كانت ليلةً ممطرةً بلغت فيها سرعة الرياح ستِّين كيلومترًا في الساعة، ودرجة الحرارة بالكاد وصلت إلى خمس عشرة درجة مئوية. كانا متسترين بالظلام ينتظران. هو، جوناثان. جواز سفر بريطاني. وهي، أماري. تحمل جواز سفر كندي والمهنة: مصوِّرة. قبعا في الظلام. الساعة تشير إلى الحادية عشرة إلا ربعًا. رأيا أضواء الحافلة قادمةً من أسفل الشارع. توقفت الحافلة في محطتها. نزل الزوجان أحمد بوشيخي، وتوريل لارسن بوشيخي. أمامهما بضعة أمتار قبل الوصول إلى بيتهما. فتح أحمد المظلة.

حملها بيمينه واحتضن زوجته بيسراه. نظرت أماري إلى جوناثان. أومأ لها، وتحركا معًا. خطوات واسعة. متجاورين. اقتربا من الزوجين الغافلين عنهما. أخرجا مسدسيهما على بعد مترين من الزوجين. صوَّبا بامتداد ذراعيهما، وأطلقا حسب الاتفاق المسبق بينهما. أطلق جوناثان خمس رصاصات إلى الصدر، وأطلقت أماري خمس رصاصات إلى البطن والفخذين، ثم أضافت رصاصتها السادسة إلى الجبهة تمامًا. إحدى عشرة رصاصة. رصاصةٌ مقابل كل روح أزهقها الرجل. تمَّت المهمة بنجاح. قبل أن يتهاوى جسد أحمد توقفت سيارتان بصرير مرتفع. قفز جوناثان إلى إحديهما وقفزت أماري إلى الأخرى، وانطلقت السيارتان في اتجاهين معاكسين.

خرق دويُّ الرصاصات المتلاحقة سكون المدينة التي لم تعرف جريمة قتل طيلة ثلاثين سنة. ليلهامر المنعزلة أغلبَ شهور السنة بسكانها العشرين ألفًا. ظهرت الأنوار تباعًا في النوافذ المطلة على الشارع. التقطت امرأةٌ من نافذةٍ نوعَ إحدى السيارتين ولونَها قبل أن تغيب في الأفق المظلم. بيجو 500، بيضاء اللون.

رغم شهور الإعداد والمتابعات والمراقبات والاغتيالات، والسعي نحو الرأس المدبِّر لعملية ميونيخ، علي حسن سلامة، الأمير الأحمر كما يصفوه، جاءت هذه العملية الأخيرة مشبَعةً بالتسرُّع والارتباك. كان أمل الموساد بالتخلص أخيرًا من الفلسطيني الذي أقضَّ مضجعهم، الذراع اليمنى لياسر

عرفات، غير أن هذه العملية تحديدًا كانت إحدى حالات الفشل الأبرز في تاريخهم. الرجل الذي اغتاله ضبَّاط الموساد اسمه أحمد بوشيخي، وهو من أصل مغربي، ولا علاقة له من قريب ولا من بعيد بالأمير الأحمر المطلوب رأسُه. كان الارتباك سيد الموقف، ولذلك كان من السهل على الشرطة تتبُّع السيارة التي هربت فيها أماري، والوصول إليها في الصباح التالي في موقف سيارات المطار. قُبض على أماري ذلك الصباح رفقة زميل لها من فريق العملية. اختيار هذا الضابط لهذه العملية كان فشلًا آخر من سوء تدبير العملية، الذي رغم نجاحه في مهمات سابقة، إلا أنه لم يكن أهلًا للانضمام للاستخبارات مع عقدة الكلوسترفوبيا التي يعانيها. ما إن أُقفِل عليه في غرفة الاستجواب في مركز الشرطة النرويجي حتى أفصح الرهاب عن نفسه وبدأ الاختناق، وصرخ الرجل يطلب إخراجه معلنًا استعداده للاعتراف بكل شيء.. واعترف، وتمكنت الشرطة من ملاحقة باقي أعضاء الفريق الموزَّعين على شقَّتين وضبط مجموعة من الوثائق المزوَّرة وقائمة بأسماء العملاء والشقق الخاصة في النرويج وفرنسا. وجدتْ أماري نفسها في مأزق. كانت تحسُّ منذ البداية بمدى الارتباك في سير العملية، وغياب التأكيد الفعلي اليقيني للهدف، وانعدام الخبرة لدى نصف الفريق على الأقل. لم يكن أمامها، أمام أسئلة المحققين المتتالية، سوى الصمت المطبق في انتظار تدخُّل وزارة الخارجية الإسرائيلية، وشغل نفسها باسترجاع مسيرتها. عمليتها الأولى، الاغتيال الأول، كان قبل سنوات من انضمامها الرسمي للموساد.

كانت سارة (وهذا اسمها الأول قبل تغييره إلى أماري معلنة عن ولادتها من جديد) متيَّمةً بمصطفى. كانت تنتظره في نهاية الزقاق ليخرج من صلاة الجمعة، وكانت تتلهَّف أن يبتعدا عن الأعين حتى تمسك يده وتقف على أصابع قدميها لتخطف قبلةً من شفتيه، كما ستتلهَّف مستقبلًا في زقاق شبه مظلم تنتظر أن يمرَّ، هو نفسه، لتُودع في جبهته رصاصةً ستكون خطوةً تحملها إلى مسيرة مهنية لم تخطر على بالها يومًا.

كانت تعرف من شظايا حكايات سمعَتها من مصادر مختلفة أن والدتها كانت تحبُّ شابًا مسلمًا. شابًا اسمه يوسف سيترك خلفه بعد أن يموت مراهقًا اسمه إبراهيم سيأتي ليعيش معهم كأنه فردٌ من العائلة. تعرف سارة أن والدتها ضغطت على والدها ليقبل باحتضان اليتيم إبراهيم، وأبوها لا شكَّ يعرف أن أب الفتى كان حبيب زوجته، قبل زواجها. لكنه لم يملك، أمام التهديد الصامت في عيني الزوجة من كشف خياناته وحرمانه من إدارة أموال أبيها، سوى أن يستجيب لطلب زوجته ويقبل أن يعيش اليتيم إبراهيم، الذي ما عاد له أحد، معهم ويتربَّى مع ابنه إسحاق وابنته. لكنه أشار إلى زوجته أنه سيكسر رقبة إبراهيم بيديه لو تجرَّأ ونظر إلى ابنته سارة نظرةَ غير الأخ. وفي سريرة نفسه، تمنى لو يتجرَّأ ابن يوسف ويطمع في ابنته حتى يتخلص منه.

ليس يهمُّ سارة سوى أن أمها أحبَّت مسلمًا وكانت فعلًا ستتزوجه لولا أن الموت كان إليه أقرب. ما يهمُّ سارة أن أمها ستتفهَّم حبَّها لمصطفى

المسلم وستدعم قرارها بالزواج منه. لكن أمها صدمتها بالرفض. كان الرفض عاتيًا هائجًا وغير مبرَّر. ألجمت المفاجأة، في البدء، سارة ثم حين تمكنت من زمام نفسها أطلقت لسانها، "لكنكِ أيضًا أحببتِ مسلمًا وكنتِ راغبةً بالزواج منه—". ولم تمهلها صفعة أمها أن تكمل جملتها. ارتدَّت سارة إلى الخلف وسقطت. إنها المرة الأولى التي تمدُّ إليها أمُّها يدها. المرة الأولى التي يضربها فيها أحدهم. قررَتْ يومها أن تنتقم. أن تضع أمها المنافقة أمام الأمر الواقع.

هذا اليوم، هذه الجمعة، قررت سارة، وهي في ذروة استعدادها الأمومي، أن موعد التنفيذ حان. في هذا الوقت حيث كل المحلَّات مقفلة وسكان المدينة ملتفُّون على غداء الجمعة، أخذت سارة مفاتيح وكالة جدِّها السياحية وأخذت معها مصطفى. دخلا إلى الوكالة، إلى مكتب أبيها، وارتمت على الأريكة الفخمة وفتحت ساقيها في دعوة لم يكن مصطفى ينتظر أكثر منها. دخل الاثنان إلى الوكالة، وحين خرجا، خرجوا. كانوا ثلاثة.

ستتعلم سارة قريبًا درسًا لن تنساه. لا شيء أبدًا يسير كما المتوقع، كما ستتعلم ألا تمنح قلبها بعد ذلك لأحد.

بعد شهرين من اللقاء الأول، وقد تكررت اللقاءات على الأريكة ذاتها وعلى العشب الأخضر في حدائق المدينة تحت ظلال الغروب، تأكدت سارة من نجاح مهمتها. إنها حامل. اغتبطت وانطلقت تجري إلى

مصطفى. تعلقت بعنقه وسط السوق، وسط دهشة الناس الذين خدشت حياءهم، وقالت بفرحة طفولية أنها حامل. صرخت بعبارتها بصوت سمعه كل من كان قريبًا منهما. تجمَّد مصطفى في مكانه، لكنه تمالك نفسه بسرعة، ستعترف سارة مستقبلًا أن المحترفين في مجالها أنفسَهم لا يملكون تلك البراعة الفطرية، وأبعد يديها عن عنقه. رسم الدهشة على وجهه، وشيئًا من البلادة، وادعى أمام جمهور المتفرجين أنه لا يعرفها. لا يعرف من تكون ولا شأن له أن تكون حاملًا. ألجمت المفاجأة سارة، ولأنها لم تتوقع شيئًا من ذلك لم تعرف ماذا تفعل إلا أن تنعطف على عقبيها وتسير دون وعي إلى حيث تقودها قدماها، وقد أوصلتاها إلى الوكالة، وأمامها كان إبراهيم قد انتهى من تلميع زجاج سيارة أبيها. توقفت، ثم زأرت واندفعت تجري وصارت تلكم صدره ووجهه وتصرخ بكلام غير مفهوم. لم يفهم إبراهيم أي عاصفة هبَّت عليه، ولم يملك سوى أن يحمي وجهه إلى أن خرج أندريه من مكتبه، ويبدو أنه فهم الأمر لا كما يجب أن يُفهم، فقد جرَّ إليه ابنته وهوى بصفعة على وجه إبراهيم ألقته أرضًا ونظر إليه متوعدًا بقتله إن رآه مرةً أخرى.

احتضن أندريه ابنته ودخلا إلى مكتبه. حاول أن يفهم من كلامها المتقطِّع بين نشيجها ولم يستوعب سوى كلمة واحدة. حامل. وقف وزأر. "سأذبح ذلك اللعين إبراهيم". توقفت سارة عن النشيج ذاهلةً تحاول أن تستوعب كلام أبيها. احتاجت بضع ثوانٍ قبل أن تفهم. ارتمت على الأريكة

وعادت إلى نشيجها، بعد أن نطقت جملة واحدة من كلمتين: "ليس هو". سيسأل أبوها كثيرًا: "من إذن؟". وستسأل أمُّها، وستُحبس في غرفتها وسينتظر والداها كثيرًا أن يعرفا من أبو جنينها، ولن يعرفا. خلال أيام حبسها قررت سارة أمرًا، وحين جاء الحاخام لزيارتها، بطلب من أمها لعله يعرف منها من اعتدى عليها، أفصحت له عن طلبها، وكان مسرورًا للغاية أن يستجيب لها ويصيد عصفورين بحجر واحد. رفع رداءه وجلست هي على ركبتيها، وبعد يومين عاد الحاخام من جديد ورفع رداءه، وقبل أن يغادر سلَّمها المسدس كامل التعبئة الذي طلبت.

في اليوم نفسه تسلَّلتْ من البيت، وكمنتْ في زقاق يمرُّ منه مصطفى مساءً بعد عودته من السوق.

"مصطفى". نادت بخفوت المحبين، ما إن انعطف إلى الزقاق حيث تنتظر.

الدهشةَ أولًا، رأت على وجهه، ثم الغضبَ. أطبق على معصمها وضغط ودفعها إلى الجدار.

"اللعنة. عليكِ اللعنة. ماذا تفعلين هنا؟". جرَّها إليه وعاد يدفعها إلى الجدار. "لا أريد أن أراك مجددًا".

"أعرف". قالت. "جئت أودعك". توقفت برهةً وأكملت والدمع بدأ يلمع في حدقتيها. "لن تراني بعد اليوم حبيبي".

الدهشةَ أولًا، رأت على وجهه، ثم شيئًا من الراحة. خفَّف الضغط على معصمها وابتعد نصف خطوة إلى الخلف. نظر إلى بطنها ورأت سارة السؤال في عينيه.

"لا تقلق. سأذهب إلى إسرائيل. لم أخبر أحدًا بأمرك ولن أخبر".

"حسنًا". قال وعاد الجمود إلى وجهه. "هو الوداع إذن".

تبادلا نظرات صامتة ثم دفن رأسه في صدره وأكمل طريقه.

"الوداع حبيبي". قالت سارة بخفوت لم يسمعه مصطفى، ثم نادته بكل إصرار العزم لديها، "مصطفى".

استدار إليها متبرمًا، وحين استدار رأى، وحين رأى كان آخر ما رآه المسدس في يدها وومضة الضوء القصيرة. انطلقت الرصاصة. اخترقت الرصاصة جبهته. مرت الرصاصة عبر دماغه. خرجت الرصاصة من مؤخرة رأسه. رأت سارة كل ذلك ببطء متعمد كأن الزمن يغشُّها ليترسَّخ المشهد بتفاصيله الدقيقة في ذاكرتها إلى الأبد، ولم تر ملاك الموت يتلقف روحه المنسحبة منه.

دوَّى صوت الرصاصة في الزقاق الصامت وارتعبت سارة من الصدى المتردد أكثر مما ارتعبت من الثقب الأحمر المتوهج في جبهة مصطفى. تجمَّدت هي كما تخشَّب مصطفى في وقوفه وكما تجمَّدت الدهشة على وجهه. ثوانٍ بدَتْ لها دهرًا، اعتقدت خلالها أن الرصاصة لم تقم بمهمتها المنذورة لها، وانتفضت حين هوت الجثة الفارغة من الحياة دفعة واحدة.

ما كادت الجثة تسقط أرضًا حتى توقفت سيارةٌ عند مدخل الزقاق وجاء الهتاف من داخلها، "هيا سارة، بسرعة". لا تعرف سارة صاحب الصوت ولا السيارة، وبقيت في وقفتها جامدة، حتى خرج من المقعد المجاور للسائق شابٌّ تقدَّم نحوها وجرَّها، وهي مسلوبة الإرادة كأن فعل سحب زناد المسدس أتى على كل طاقة الفعل لديها، ودفعها عبر الباب بعد أن سحب المسدس من يدها المتخشِّبة. "هيا قبل أن يتعرف عليكِ أحدٌ من السكان".

لم تبِت سارة ليلتها تلك في بيتها، ولم تعرف أين هي. حُملت من السيارة بعد رحلة تجاوزت الساعة ثم أُدخلتْ بيتًا يبدو كأنه فيلَّا. ستقودها امرأةٌ إلى غرفة نوم وستوصلها إلى الفراش وتنزع حذاءها. ستنام سارة نومًا طويلًا ستقول عنه لاحقًا أنه موتٌ لم تشعر خلاله بشيء. كانت قد استَنزفت كل طاقتها واحتاجت إلى عشرين ساعةً من النوم المتواصل قبل أن تستردَّ بعض عافيتها وتفتح عينيها. ستعرف أنها في فيلَّا في طنجة وبأنها لن تعود أبدًا إلى تطوان، إلا مرةً واحدةً سريعةً لتُودِع رصاصةً

في جبهة الحاخام الذي لا يزال مذاق لحمه النجس في فمها، وستأخذ منه بعد ذلك قطعة اللحم تلك لتكون تذكارًا هو الأول لها ولن يكون الأخير في خزانتها السرية في تل أبيب.

ستعرف سارة أنها في ضيافة خلية من شباب اليهود يدرِّبهم ضبَّاط الموساد على العمليات العسكرية في مخيمات مغلقة، يُفترض أنها مخيماتٌ ترفيهيةٌ رياضية. علمتْ أنها في اللحظة التي اختارت فيها، طوعًا، أن تضغط زناد المسدس، اختارت مسارًا جديدًا لحياتها لا رجوع عنه. خلال الشهر السابع من الحمل قرَّرت التخلص من الجنين، وكادت أن تموت خلال ذلك. بعد إجهاض الطفل، بعد عودتها من الموت، أحسَّت أنها وُلدتْ من جديد، وأمامها الآن مشوارٌ طويلٌ من المجد الذي لن يضاهيها فيه أحدٌ من زملائها في الموساد، كما في جيش الدفاع من قبل. في مكتبها في الموساد الذي نادرًا ما تستقرُّ فيه، عُلِّقت لوحة الوصية التلمودية: "إذا عزم شخصٌ أن يقتلك، قم إليه واقتله أولًا". صارت العبارة تلك دستورها في الحياة. لكن مسيرتها العظيمة تلك انهارت دفعة واحدة بسبب التسرُّع الأخرق لرئيسها في تدبير هذه العملية. الهلع الذي أثاره علي حسين سلامة، وعملياته العسكرية الاستخباراتية بالغة الاتقان أصابت الرجل بالجنون، وعلى ما يبدو أن الإشاعة صحيحةٌ أن المدير كان يريد التضحية به فداءً بسبب إخفاق الموساد الذريع في ملاحقة الأمير الأحمر.

لم تفشل أماري من قبل في سلسلة عملياتها بالغة الإتقان. فقط مرة واحدة كادت تفشل وتخسر معها حياتها. تمكنت يومذاك من اختراق حفلة نظمتها السفارة الإسبانية في روما، واستطاعت التسلل إلى مكتب الملحق العسكري الذي كان الموساد يشكُّ بتعاونه مع المخابرات الليبية. بدأت التنقيب في أدراج مكتبه حين جاء الصوت من خلفها بالإسبانية، "ماذا تفعلين هنا؟". استدارت ببطء، وقبل أن تصل يد الحارس إلى مسدسه قفزت أماري إليه بخطوة واسعة وضغطت بيمناها على رقبته ويسراها أمسكت يمينَه قبل أن يخرج المسدس. دفعته إلى الحائط وضغطت فصَّ خاتمها في فمه. انتفض الرجل فورًا وقد سرى السمُّ في دمه، وتراخى جسده. فشلت العملية، التي كان يُفترض أن تكون سرية، لكنها على الأقلِّ نجت بحياتها، ولتمنح لنفسها وقتًا إضافيًا للخروج قبل اكتشاف الحارس المقتول فتحت النافذة وتحققت من عدم وجود حراس في الحديقة أسفل النافذة، وجرَّت الحارس بجهد غير هيِّن حتى أسندته على النافذة، ودفعته ليسقط.

فتحتُ عيني واستدرتُ إلى يساري. لم تكن إيزل هناك. لوهلة شعرت بالراحة، إذ فكرتُ، أن إيزل لا وجود لها. هي محض حلم. لكني لم أستمتع بخلاصي ذاك طويلًا إذ طرق مسمعي صوتُ رشَّاش الماء في الحمام. هي حقيقيةٌ إذن. استيقظتْ قبلي وذهبتْ تستحمُّ. أغمضتُ عيني وضغطتُ شفتي. توقَّف صوت الرشَّاش. فُتح باب الحمام. خطواتٌ مكتومةٌ على الأرضية. أطلَّت إيزل عليَّ في الغرفة، وشهقتُ.

اللعنة.

كل هذا البياض.

تجمَّدت إيزل في وقفتها. علَت الحمرة وجنتيها وبشكلٍ لا إرادي، على الأرجح، غطَّت بكفِّها ملتقى ساقيها، وأنا كنتُ أجاهد لألتقط أنفاسي.

~~كنت نائمةً على ظهري عارية الصدر. كنا في شهر يونيو، والسنة الدراسية تلفظ أيامها الأخيرة. فتحتُ عينيَّ لأجد رفيقة غرفتي في السكن الجامعي، في مارتيل، جالسةً على سريري. عطرها الساحر يخترق أنفي.~~

~~ابتسمتْ بدلال حين فتحتُ عيني. مدَّت أصابعها تتلمَّس حلمتي. أحسستُ بصاعقة كهربائية ولم أملك أن أحرِّك جسدي. شعرتُ بالبلل بين ساقيَّ، وبالقدر الذي أردتُ الصراخ في وجهها وإبعاد أصابعها عن ثديي أردتُ منها المزيد. أن تسكن أصابعها هناك، حيث أمسكتْ حلمتي وبدأت تضغط عليها برفق. اطمأنَّت إلى صمتي فنزلتْ بشفتيها إلى حلمتي الأخرى، امتصَّتها قليلًا ثم عضَّتها عضَّةً خفيفة. تأوَّهتُ رغمًا عني. رفعتْ رأسها وابتسمتْ، بنشوة ربما أو انتصار. ثم قبَّلتني. أغمضتُ عيني وتأوَّهتُ، بل كدتُ أنتفض. اعتدلتْ وجلستْ عليَّ. صارتْ تقبِّلني بلهفة أكبر، وأدخلتْ أصابعها في فرجي. دفعتُها عني وصرختُ: "ماذا تفعلين؟".~~
وصرختْ إيزل: "ماذا تفعلين؟".

وجدتُني أحيط يدي بوسط إيزل وأنا أحاول تقبيلها.

"من فضلك خلود، لا". وتملَّصتْ مني.

"إيزل، إيزل. انتظري".

"آسفة خلود. لم أقصد الخروج من الحمام عارية، حسبتك نائمة".

"لا، لا تعتذري. لماذا تعتذرين؟ دعيني أتلمَّس ثديك". أمدُّ يدي نحوها فتتملَّص مجددًا. لكني أندفع نحوها. أُمسكها. أضغطها إليَّ وأعصر

عجيزتها. أدفعها إلى الجدار. أعصر ثدييها. أحاول تقبيلها وهي تُبعد وجهها جانبًا. لا أعرف أيَّ جنونٍ مسَّني يومذاك. صفعتُها.

"اهدئي يا حمقاء". وقبضتُ أخيرًا على شفتيها وأرسلتُ أصابعي إلى فرجها. لكنها نمرةٌ شرسة. دفعتني بعنف. أرادت أن تهرب. قمتُ إليها ودفعتُها. ركلتني بقدمها وقامت مجددًا. كانت بجانب الشرفة الملحقة بغرفة النوم. أرادت أن تقفل عليها هناك. الحمقاء تهرب مني لتَعرض عُريها على المتفزِّجين في الشارع. آلمتني ركلتُها وقمتُ بجنون. تعثَّرتُ في الإطار السفلي لباب الشرفة وسقطتُ مندفعةً إلى الأمام. مباشرةً نحو إيزل. ارتدَّت إيزل إلى الخلف. إلى سور الشرفة. اصطدم ظهرها به وواصلت اندفاعها. صرختُ بامتداد الصرخة الحيوانية المنفلتة من فم إيزل. ثم جاء صوت الارتطام. وفقدتُ الوعي.

استيقظتُ في المستشفى. قيل لي إن الجيران سمعوا صراخي فكسروا الباب ووجدوني مغمىً عليَّ والدماء تنزل على ساقيَّ. لكن، لا أثر لإيزل. جثَّتها التي هوت من شرفتي ودمَّرت السيارة التي سقطت عليها، التي سمعتُ صوت زجاجها يتناثر، اختفت. لا وجود لجثة إيزل. لا وجود لتلك السيارة. الآن سيدي المفتش، دعك من حكاية العميل الإسباني الذي رأيتُه يسقط من شرفته وأنا أهمُّ بدخول المبنى. أخبرتُك لا أعرف عنه شيئًا. هو عميلٌ كتوم. دعنا منه، ولا أفهم إصرارك على تذكيري به. دعنا منه، وأخبرني، ماذا حدث لإيزل؟ أين اختفت جثتها، وأين اختفى عدنان

من قبل؟ قضى معي سبعة أشهر ثم ذهب. أريد حبيبي. أعيدوا لي عدنان.

اللعنة، لا تسألني عن ~~العميل العميد~~ العميل مجددًا. أين عدنان؟

محمد سعيد احجيوج. روائي من المغرب. تاريخ الميلاد: 1 أبريل 1982. صدر له:

"كافكا في طنجة" (دجنبر 2019)، نوفيلا ترجمت فصولها الأولى إلى الإنجليزية والإيطالية والعبرية.

"أحجية إدمون عمران المالح" (أكتوبر 2020)، تأهلت إلى القائمة القصيرة لجائزة غسان كنفاني للرواية العربية.

"ليل طنجة" (يناير 2022)، حصل مخطوطها على جائزة إسماعيل فهد إسماعيل للرواية القصيرة.